الفصل الثالث

تطور حركة الدولة الإسلامية في العلاقات الخارجية في الخبرة السياسية

الفصل الثالث

تطور حركة الدولة الاسلامية في العلاقات الخارجية في الخبرة السياسية

تمهيد :

الواقع ان خبرة عصرى النبوة والخلافة الراشدة تأتي لتؤكد أن المسلمين ابان هذين العصرين ما كانوا ليقبلوا ان تظل النظرة الأصولية لمفهوم الدولة الاسلامية وحركتها الخارجية مجرد مثال مبني علي مسلمات تجريدية يأباها طبعها ، كما تأباها حقيقتها الواقعية ، خاصة وقد بعث فيهم رسول من انفسهم علمهم أن الايمان والعمل قرينان ، وأن قدرة أي نموذج حضاري مبني علي الوحي قرآنا وسنة علي أن يجد لوعوده ومبشراته صدي ، انما تتأتي من كفاءته في الاقتراب من واقع الذين يخاطبهم وينشد الاصلاح فيهم ، والاستجابة لما يلفظه هذا الواقع من تحديات وعلامات استفهام بحكم التجدد المستمر في احداثه ووقائعه، وأن القيم الايمانية أيا كانت واجهاتها ووجهاتها ومجالها لابد أن تتحول الي حياة يتفاعل الانسان بها وينفعل ، ويتشكل بها ويتأثر فاذا بها مستوعبة كل مناشطه ، ومساعيه ، واذا به يجد فيها ضالته في الاهتداء الي أقوم السبل ، وأحسنها في شأنه الخاص وعلاقاته بغيره .

من هنا كان التحام المسلمين في العصرين السالفين مع المباديء الأصولية في تنظيم الدولة وضبط حركتها داخليا وخارجيا ، فجاءت تجربة النبوة بمثابة اللبنة الأولي في تجسيد كيان الدولة ، وهو البناء الذي لم يأت هينا لينا ، وانما بذل في سبيله اجتهاد وجهاد ، بدأهما النبي صلي الله عليه وسلم في مكة حيث زلزلة الكيان الاجتماعي والسياسي والثقافي والعقيدي فيها ، وتحدي المباديء الفاسدة والآليات المعوجة التي سيرت من خلالها الحياة لاهلها ، واستكملها بعد الاذن بالهجرة ، حيث تأسيس أركان الدولة ، وبداية اظهار الوجه الحضاري لها ، قبل المجتمع الاسلامي من جهة والمجتمعات الاخري غير الاسلامية من جهة أخري ، بما استلزمه ذلك من تنظيمات وتراتيب ، وسياسات ، وقرارات وتعاهدات ، وصدامات دموية أحيانا.

ولما كان وقع تجربة النبوة علي الموروث القبلي شديدا فان القبائل العربية وجدتها فرصة ان تعلن عن نكوصها علي اعقابها ، وأن ترتد عن ايمانها بعد أن تطاير خبر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في الآفاق غير أنها لم تكد تهنأ بما انتهزته حتي وجدت الخليفة الأول لها بالمرصاد ، فاذا به يبدأ التطور الثاني في سلسلة تطورات الدولة الاسلامية بوأد الفتنة التي بدت نذرها مع ارتداد هذه القبائل ، بل لم يكفه ذلك فحرك في نفس الوقت قواته وقواده ايذانا باعادة الحركة الخارجية للدولة علي نفس الطريق الذي كان المسلمون قد بدأوا خطواته الأولي في عصر النبوة ، غير أن أبا بكر لم يمهله القدر ليثبت للقوي الفارسية والرومية مصداقيته في هذه الاعادة ، وقدرته علي تأكيد أن اللغة القوية الحاسمة التي حملتها رسائل الرسول صلي الله عليه وسلم ورسله الي قادتها وقوادها

وقادة من ناوأها ستستحيل الي واقع ينفد ما انذروا به وهددوا إن هم أبوا إلا الاستكبار والفساد في الأرض والصد عن دعوة التوحيد .

وكأن ابا بكر قد القي بمهمة خطيرة علي عاتق الخليفة من بعده ليحقق ما كان يبغيه، وما كان ينتظره المسلمون منه منذ عصر النبوة ، ويأبي الله إلا ان يتمخض التطور الثالث مع عمر بن الخطاب محققا لطموحات ابي بكر وطموحات المسلمين ، فاذا بالدولة متزامية الاطراف ، واذا بالقوي التي تحكمت برقاب العباد ظلما واستبدادا وجبروتا في فارس والروم ومن حالفهما أوهي من بيت العنكبوت ، واذا بعلاقات المسلمين مع غيرهم علي درجة من التعدد والتنوع والشمول لم يعهدها المسلمون من قبل ، فلما استعلت الدولة والدعوة مع الخليفة الثاني ، واستوعبت تحديات الاستعلاء والشموخ وبدا أن آفاقا جديدة ممتدة قد فتحت كي تتعانق كلتاهما بفاعلية ونهوض ، اذا بالمجتمع الاسلامي يضرب في قيادته ، لكنها لم تكن الضربة الأولي ، ذلك ان ثمة نذرا كانت تلوح بمقدم انتكاسة للدعوة وللدولة بعد عمر بن الخطاب وما هي إلا سنوات قليلة حتي تداعت الضربات مع مجيء التطور الرابع مابين داخلية واخري خارجية ، واذا بفترة غير قصيرة من خلافة عثمان بن عفان، وفترة ثانية هي عمر خلافة علي بن ابي طالب تتعاقبان في تجسيد هذه الضربات، لتطمع قوي داخلية ، واخري خارجية في الدولة وخلافتها ولتحاول الهدم في جدارهما ، ورغم النجاح النسبي للتصدي للتحديات الخارجية بأشكالها المتعددة ، إلا أن محاولات مداواة الجراح والفتن الداخلية لم تؤت أكلها في اعادة الترميم الأمر الذي قاد في النهاية الي اسقاط الخلافة الراشدة بالتعدي الدموي علي قياداتها منذ عمر بن الخطاب وحتي الخليفة الرابع واصابة حركة الدولة بالعطالة. لتبدأ سلسلة أخري من التطورات السياسية ما بين صعود وهبوط مع عصر الملك بتجاربه الاموية والعباسية وما تلاهما .

اذن فقد اينعت خبرة عصري النبوة والخلافة الراشدة أول نموذج عملي لبناء الدولة في التطور السياسي الاسلامي ، وان كان اختلاف ادوار المؤسسين في كلا العصرين ، ومن ثم اختلاف طبيعة الدولة ، من دولة نبوة يقودها الرسول صلي الله عليه ويلم مؤيدا بالوحي قرآنا وسنة الي دولة خلافة يقودها خلفاء راشدون تحروا الاقتداء بهذا الوحي وبمآليات دولة النبوة ، قد القيا بظلالهما في تطور دلالات مفهوم الدولة وحركتها رغم وحدة مركزها وثبات عاصمتها في يثرب. وتكشف متابعتنا لتطور هذه الدلالات أنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بتطورات أربعة شهدتها عملية بناء الدولة في حركتها الداخلية والخارجية علي النحو التالي .

المبحث الأول : التطور الأول : تأسيس بناء الدولة ومقدمات الحركة الخارجية :

وهذا التطور هو نتاج طبيعي لجهاد الجماعة المؤمنة بقيادة النبي صلي الله عليه وسلم ومعاونة صحابته رضوان الله عليهم ، منذ ان تلقي الوحي من السماء ليكون للعالمين كافة بشيرا ونذيرا ، وحتي انتقاله الي جوار ربه ، وهو من جهة اخري حصيلة اجتهاد الرسول صلي الله عليه وسلم وصحابته في نقل تعاليم الوحي الالهي بأوامره ونواهيه الي واقع معاش ، وقد اصطدم بمجتمع -

في مكة – أبي إلا أن يعيش حياة الجاهلية بكل ما فيها من فساد الفكر والخلق والمعتقد ، إلا ما نذر ، ورفض أن ينتظم أمره علي نهج يعيد اليه كيانه ، علي هدي من الله وبصيرة . في نفس الوقت الذي تعانق فيه مجتمع آخر – في المدينة – مع الوحي ، وأبي إلا ان يكون تربة صالحة تبشر بميلاد أمة فيه قادرة علي ان تكون طليعة الايمان والمؤمنين لها هويتها وتميزها الحضاريين وسط مجتمع رفع راية الشرك والوثنية في شبه الجزيرة العربية وعلى مقربة من دول – في فارس والروم – كانت أكثر سطوة ، وأكبر نفوذا ، وأعلي هيمنة علي البلاد والعباد ، وان تساوت مع ذلك المجتمع في جاهلية البعد عن منهج التوحيد .وتبدو لهم ملامح هذا التطور فيما يلى :

المطلب الأول : التدرج بالدعوة لتأسيس نواة قاعدة الدولة :

وقاعدة الدولة هنا انما تعني الجماعة المؤمنة ، وماكان وجودها ليتجسد وشملها ليتوحد ، لولا توافر مادة الوجود والتآلف التي تلقاها الرسول صلي الله عليه وسلم وحيا منزلا منذ صدر اليه التكليف الالهي ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾ [1] ، وكان طبيعيا ان يكون اتساع الانضواء الي قاعدة الايمان مرتبطا باضطراد الجد والاجتهاد في كيفية تبليغ أساسها ، وتحمل المشاق في سبيلها ، لذلك كان للأمر الالهي ﴿ولربك فاصبر﴾ [2] مغزاه حين نبه الرسول صلي الله عليه وسلم الي عظم المسؤولية ، وعظم تضحياتها ، وليس من وراء ذلك إلا الصبر والجلد ، حتي يظهر الله دينه ، وهكذا كان التكليف بالتدرج في الدعوة من الاسرار الي الاجهار له ما يبرره [3] ذلك ان توقع

---

(١) سورة المدثر / الآيتان رقم ١ ، ٢ .

(٢) سورة المدثر / الآية رقم ٧ .

(٣) يروي ابن هشام في سيرته عن ابن اسحاق قوله "وكان بين ما اخفي رسول الله صلي الله عليه وسلم امره ، واستتر به الي ان امره الله تعالي باظهار دينه ثلاث سنين ثم قال تعالي ﴿فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين" وقال تعالي "وانذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين وقل اني انا النذير المبين ...﴾ .

انظر سيرة ابن هشام ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .

وانظر ايضا في هذه المرحلة السرية من الدعوة : الطبري , تاريخ الأمم والملوك ، بيروت ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، د.ت ، ج٢ ، ص ٦١ .

محمد بن عبد الكريم المعروف بن الأثير تحقيق ابي الفداء عبد الله القاضي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولي ١٤٠٧-١٩٨٧، ج١ ، ص٥٨٤ .

وانظر فقه هذه المرحلة وحكمتها في : د. محمد سعيد رمضان البوطي : فقه السيرة ، مرجع سابق، ص ص ٧٦ – ٧٧ .

وانظر أيضا :

- Hugh Kennedy , The Prophet and the Age of the Caliphatets , London and New York : Longman , 1980 , pp 29-33 ; Ali Dashti , Twenty three Years:A study of the Prophetic Carrer of Muhammad, London : George Allen & Unwin , 1984 , pp 74-85.

اتساع قاعدة التسليم لها ، والاذعان لمنطقها ، والدخول في رحابها لم يكن أمرامسلما به ، في مجتمع استمرأ حياة الجاهلية ، بكل تناقضاتها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية والعقيدية، بل العكس هو الصحيح . اذ كيف يتوقع من مجتمع هذه هيئته منذ قرون طويلة في مناحي الحياة كافة ان ينقلب علي عقبيه بين عشية وضحاها ، ليحطم أسسه بيديه ، ويقيم أسسا أخري مختلفة في الهوية والانتماء والسيرة ؟ . وكيف يتوقع من قياداته التي استمرأت فساد المنهج ، ظلما بالباطل وكبرا وعتوا وسطوة ونفوذا ،ان تتزلزل مكانتها ، وتتصدع ، بعد ان اعتادت ان تدين لها القبائل والمجتمعات المجاورة بما هي عليه ؟ لذلك لم يكد رسول ا لله عليه وسلم يجهر بدعوته حتي كان وقعها علي المجتمع المكي عظيما ، وكان منطق إبائه واعراضه عنها اقوي من منطق القبول والدخول فيها [1] ، وسرعان ما تحول منطق الرفض الي طور آخر حين مارست قريش من اشكال العنت كافة ضد الجماعة المؤمنة ، مما لم يكن ثمة سبل لدفعه إلا بمزيد من بذل النفس والمال والمتاع ، ولذلك كان حظها - أى الجماعة المؤمنة - من الاهانة والتخويف والتجويع والتضييق في المعايش والارزاق عظيما [2] ، وان كانت سنة ا لله في حماية الدعوة وحماية هذه الجماعة اقتضت ان يكون قائدها أكثر منعة وحفظا بكفالة ابي طالب عم النبي صلي ا لله عليه وسلم له ، يقول الطبري "ثم ان قريشا تذمروا علي من في القبائل منهم من اصحاب رسول اله صلي ا لله عليه وسلم والذين معه فوثبت كل قبيلة علي من فيها من المسلمين ، يعذبونهم ، ويفتنونهم علي دينهم ، ومنع ا لله رسوله منهم بعمه ابي طالب ، وقد قام أبو طالب حين رأي قريشا تصنع ما صنع في بني هاشم وبني المطلب ، فدعاهم الي ما هو عليه من منع رسول ا لله صلي ا لله عليه وسلم ، والقيام دونه ، فاجتمعوا اليه ، وقاموا معه، واجابوا الي ما دعاهم اليه من الدفع عن رسول ا لله صلي ا لله عليه وسلم، إلا ما كان من أبي لهب " [3] .

علي أن ما مضي لا يعني ان رسول ا لله صلي ا لله عليه وسلم قد سلم تماما مما تعرض له اصحابه ، بل ناله جانب كبير منه اذ اشتدت عليه قريش "فأغروا به سفهاءهم فكذبوه ، وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول ا لله صلي ا لله عليه وسلم مظهر لأمر ا لله

---

(١) يقول ابن اسحاق "فلما بادي رسول ا لله صلي ا لله عليه وسلم قومه بالاسلام وصدع به كما أمره ا لله ، لم يعد منه قومه ، و لم يردوا عليه -فيما بلغني - حتي ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك اعظموه وناكروه ، واجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم ا لله تعالي منهم بالاسلام ، وهم قليلون مستخفون ..) . انظر : سيرة ابن هشام ، مرجع سابق ، ج١، ص٢٦٦.

(٢) انظر صورا من هذا العنت والاضطهاد في : المرجع السابق ، ج١، ص٢٨٩، ص٣١٥ ؛ الطبري، تاريخ الامم والملوك، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٦٤-٧٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ،ج١ ، ص ص ٥٨٤ - ٥٩٦ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ ، القاهرة : دار الفكر العربي ، الطبعة الأولي ١٩٣٢م - ١٣٥١هـ ، ج٣ ، ص ص ٤٠ -٦٠ ؛ د. البوطي ، فقه السيرة ، مرجع سابق ، ص ص ٨٤-٨٧ ؛ د. عماد الدين خليل ، دراسة في السيرة ، المنصورة : دار الوفاء ، د.ت ، ص ٦٥-٧٧ ؛ صفي الرحمن المباركفوري ، مرجع سابق ، ص ص ٩٧ - ١٠٧.

(٣) انظر : الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٦٨ ؛ابن هشام ، مرجع سابق، ج١ ، ص٢٧٠.

لايستخفي به . مبادلهم بما يكرهون ، من عيب دينهم واعتزال أوثانهم ، وفراقه اياهم علي كفرهم [1] إلا أن منعة الرسول صلي الله عليه وسلم ، وما كان فيها من حصانة ، لمكانته من الله تعالي ، ثم من عمه أبي طالب لم تمتد لتمنع الاذي عن الصحبة المؤمنة ، لذلك كان قراره أن يخرجوا الي أرض الحبشة، لأن بها كما أخبرهم "ملكا لايتغي الظلم لأحد ، كما أن أرضها أرض صدق [2] وان كان بعض المحدثين من المهتمين بدراسة التاريخ الاسلامي يرون ان وراء اختيار الحبشة – فضلا علي ما سبق ، من عدل السيرة ، وصدق الارض – أسبابا أخري منها تيسر السفر اليها بحرا بالسفن ، ومساعدة الرياح الموسمية لهذا السفر البحري في ظروفه، والعلاقات المذهبية الطيبة بين الاسلام الذي كان يدين به الذين قصدوا الهجرة الي الحبشة والنصرانية التي كانت عليها الحبشة ، والامل في ان يدخل اهلها في الاسلام واجابة دعوته ، واكتساب حليف قوي تجمعه والمؤمنين رابطة دينية – وان اختلفت الديانة – ضد المشركين وعبدة الاوثان ، فضلا علي أن الانتقال الي أي مكان آخر لم يكن مأمون العواقب للخروج إليه [3] .

المطلب الثانى : الصدود المكي وصعوبة اختيار موقع بناء الدولة في مكة :

لو أن الأمر في دعوة الاسلام أن تكون توجيها اخلاقيا لاكتفي الرسول صلي الله عليه وسلم بمن دعاهم ، وما عليه ثمة حرج ان لم يدخل فيها آخرون ، وماذا كان يضيره إن اعرض عنه معرض أو استجاب له مستجيب ، بعد ان أقام الحجة علي من دعاهم وأعيته السبل في جمعهم علي كلمة التوحيد ، بل ما كان أهون الأمر عليه ان يخرج مع اصحابه الي الحبشة حين أمرهم بالقصد اليها ، بيد أن الأمر في هذه الدعوة كان يحمل وجها آخر غير الوجه الاخلاقي وهو وجه التمكين لها في الارض – استخلافا واعمارا – في كيان حضاري، قادر علي تعبيد الناس لربهم ، لينهض به اولئك الذين ارتضوها منهج حياة ايماني فاستحقوا وعد الله تعالي لهم ان يكونوا الاجدر بوراثة الارض والخلافة الصالحة عليها ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضي لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدونني لايشركون بي شيئا﴾ [4] ، وازالة ما يعوق سيرهم كله في هذا الطريق من أفراد وجماعات ودول ، ومن أفكار وثقافات ومناهج وعقائد ليست من الله

---

(١) انظر ابن هشام ، مرجع سابق ، ج١ . ص٨٩.

(٢) انظر في هذا القول : المرجع السابق . ج١ ، ص٣١٣ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٦٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج١، ص٥٩٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٦٦ ؛ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، القاهرة : مكتبة الحلبي ، ١٣٩٠ – ١٩٧٠ ، ج١ ، ص٣٨ ؛ د . عماد الدين خليل ، مرجع سابق ، ص٧٧ ؛ د. البوطي ، فقه السيرة ، مرجع سابق ، ص ص ٨٩ – ٩٩ ؛ صفي الرحمن المباركفوري ، مرجع سابق ، ص ص١٠٨-١٠٩.

(٣) انظر : د. عماد الدين خليل ، مرجع سابق ، ص ص ٧٧-٧٩ .

(٤) سورة النور /الآية رقم ٥٥ .

في شيء ، وهكذا كان فهم النبي صلي الله عليه وسلم حين أراده نفر من قومه من قريش ان يعدل عن دعوته ، اذ بين لهم مقصود الدعوة في ان تستعلي راية التوحيد ، وأن يدين الناس لها ، فتدين لهم الدنيا ولذلك كان رده علي وساطة عمه ابي طالب بينه وبينهم "ادعوهم الي ان يتكلموا بكلمة - أي كلمة التوحيد - تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم "وفي رواية اخري "وتؤدي لهم بها العجم الجزية " [1] بيد ان واقع الحال في مكة لم يكن ليبشر بأن تكون هي مهد هذا الكيان الحضاري اذا ما تذكرنا أربع وقائع .

أولاها : فتنة الذين هاجروا الي الحبشة مرتان ، لما تبعتهم قريش الي حيث هاجروا ، بقصد ردهم وايذائهم ، ولولا ان صدق ظن النبي صلي الله عليه وسلم في ملك الحبشة، فمنعهم منهم ، وردهم علي اعقابهم لنالوا منهم نيلا عظيما ، وعندما قفل بعض من هاجر الي الحبشة عائدا الي مكة ، حين شاع خبر اسلام اهلها ، فلما تبين كذب ذلك ما دخلوها إلا بجوار واستخفاء ، كي يأمنوا بطش قريش ومن ناوأها [2] .

والثانية : ممارسة قريش مزيد من الضغوط والتهديدات قبل ابي طالب ، لأجل أن يصرفوه عن ايواء النبي صلي الله عليه وسلم ونصرته ، واتبعوا لذلك حيلا كثيرة ، اباها جميعا ، بعد أن أظهر له الرسول صلي الله عليه وسلم الاصرار علي المضي في تبليغ رسالة ربه حتي يظهرها الله أو يهلك دونها .

والثالثة : تعرض الذين لم يهاجروا الي الحبشة من المسلمين للمحن الشديدة ، خاصة بعد أن فرضت عليهم قريش الحصار الاقتصادي [3] في الوقت الذي كانت تتفنن في اذاقتهم لباس الجوع والخوف والتعذيب ، فرادي وجماعات .

---

(١) والكلمة هي قول " لااله إلا الله" فلم يقبلوها وفي رواية ابن هشام ان ابا طالب ارسل الي النبي صلي الله عليه وسلم فلما جاءه اخبره ان "هؤلاء اشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك ، وليأخذوا منك ، قال : فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : نعم . كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، قال : فقال أبو جهل : نعم وابيك، وعشر كلمات. قال تقولون لااله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه قال : فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا : اتريد يا محمد ان تجعل الالهة الها واحدا، ان أمرك لعجب قال بعضهم لبعض : انه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا علي دين آبائكم ، حتي يحكم الله بينكم وبينه، قال :ثم تفرقوا" .

انظر : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٦٦-٦٧ .

(٢) انظر : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج١ ،ص٣٥٠ ؛ ابن سعد ، مرجع سابق ،ج١ ، ص ص ١٦٠-١٦١ .

(٣) وذلك كرد فعل للنصر الذي حققه المسلمون بالهجرة , فكتبوا امضاء لهذا الحصار صحيفة للمقاطعة وعلقوها علي جدار الكعبة انظر ملابسات هذه الصحيفة في :المرجع السابق ، ج١، ص٣٣٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ص ٩٥-٩٨ ؛ ابن سعد ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ص ١٦٢ -١٦٤ .

والرابعة : تداعي الخطوب علي النبي صلي الله عليه وسلم عام الحزن بعد ان فقد نصيريه في العام العاشر من الهجرة حيث توفي عمه أبو طالب الذي كان له عضدا وحرزا في أمره ومنعة وناصرا علي قومه ، ثم تبعته زوجته خديجة رضي الله عنها ، التي كانت له وزير صدق علي الاسلام، وعندها وجدت قريش نفسها في سعة من أمرها كي تنال منه بالأذي ما لم تكن تطمح فيه في حياة أبي طالب [1] .

وإزاء هذا العنت المكي مد الرسول صلي الله عليه وسلم طرفه صوب نواح أخري ، علها تكون انطلاقة بديلة للدعوة والدولة ، فكانت وجهته الأولي نحو قبيلة ثقيف بالطائف يلتمس من أهلها النصرة علي قومه ، ورجاء ان يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فلما انتهي الي رؤسائهم ما وجد منهم إلا صدودا وانكارا ، كأهل مكة ، بل عصوا ما دعاهم اليه ، واغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ، ويؤذونه حتي ألجأوه الي بعض نواحيهم ، يلتمس أمنا وحماية وهو يستمطر رحمات السماء أن لايكون ما أصابه من قبيل الغضب الالهي ، وعسى أن يتنزل النصر والتثبيت للدعوة وله ولأصحابه المؤمنين [2] .

أما وجهته الثانية فكانت قبائل العرب التي كان يعرض عليها الدعوة كلما اجتمع له منهم بالمواسم ، وهو لايسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدي له، فدعاه الي الله وعرض عليه ما عنده [3] بيد أن حال هذه القبائل ما كان أصلح مما دأبت عليه قريش في مكة ، وثقيف في الطائف ، بل "كان كلما أتي قبيلة يدعوهم الي الاسلام تبعه عمه أبو لهب ، فاذا فرغ رسول الله صلي الله عليه وسلم من كلامه يقول لهم أبو لهب : يابني فلان انما يدعوكم هذا الي ان تسلخوا اللات والعزي من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن الي ما جاء به من الضلالة والبدعة، فلا تطيعوه ولاتسمعوا له " [4] ويبدو أن ارادة الله في اظهار دينه وانجاز وعده كانت أمضي من دأب هذه القبائل ومكرها ، وأبقي من محاولات أبي لهب ، اذ وجد النبي صلي الله عليه وسلم في الانصار ما كان يصبوا اليه علي نحو ما سنري.

---

(١) انظر : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص١٩ ؛ الطبري ،تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٢، ص٨٠ ؛ وابن الاثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ص ٦٠٦-٦٠٧ ؛ ابن سعد ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ص ١٦٤-١٦٥ ؛ ابن كثير، البداية ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ص ١٢٢-١٢٦.

(٢) وذلك بالدعاء المشهور الذي جاء فيه " اللهم اليك اشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني علي الناس ، يا أرحم الراحمين انت رب المستضعفين وانت ربي الي من تكلني الي بعيد يتجهمني ام الي عدو ملكته امري ان لم يكن بك غضب علي فلا ابالي" ، انظر : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢٢ ؛ الطبري ، تاريخ الامم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٨١ ؛ ابن سعد ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ص ١٦٤-١٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٣ ،ص١٣٦ .

(٣) انظر : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢٦ .

(٤) انظر : ابن الاثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج١ ، ص٦٠٩ .

المطلب الثالث : بيعتا العقبة وتأسيس الدولة علي العقد :

فما كانت انتكاسات الدعوة – السابق الاشارة اليها – لتثني الرسول صلي ا لله عليه وسلم عن المضي في بناء الكيان الحضاري ، بعد بناء الجماعة المؤمنة ، بل زادته اصرارا وعزيمة علي انجاز وعد ا لله له بالتمكين في الارض واظهار دعوته علي الدين كله ، ولو كره المشركون ، فمضي يدعو القبائل من جديد ، حتي كان لقاؤه بالانصار ايذانا بتأسيس الدولة تأسيسا تعاقديا قائما علي المبايعة بينه وبين ممثليهم عبر خطوات ثلاث متلاحقة :

الأولي اتخذ العقد فيها شكل الاتفاق علي نقل الدعوة الي المدينة – حيث مقر الانصار – ونشرها بين اهلها ، لما التقي الرسول صلي ا لله عليه وسلم – في السنة الحادية عشرة من مبعثه – مع رهط من الخزرج ، فدعاهم الى الاسلام فأجابوه وانصرفوا الي قومهم ، بعد ان وعدوه القدوم عليهم ودعوتهم الي ما دعاهم اليه ، وعرضهم ما أجابوا من الدين عليهم ، واتفقوا معه علي المقابلة في العام التالي ، وكأن الرسول صلي ا لله عليه وسلم من خلال هذا الرهط أراد أن يترك لأهل المدينة سعة الاقتناع بالدعوة ، والتعرف علي رسالتها ، ليكون غرس الدولة فيها قائما علي الطواعية والقبول والتسليم بارادة واختيار ، لا اكراه فيه ولا إجبار.

والخطوة الثانية : اتخذ العقد فيها شكل بيعة النساء[1] ، لما صدق الانصار في وعدهم، فقدم منهم اثنا عشر رجلا في العام التالي ، والتقوا بالنبي صلي ا لله عليه وسلم عند العقبة فبايعوه – دون الحرب والقتال – علي أساس ماروي عن عبادة بن الصامت "بايعنا رسول ا لله صلي ا لله عليه وسلم ليلة العقبة الأولي علي إلا نشرك با لله شيئا ، ولا نسرق ولا نزني ، ولا نقتل اولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتري به من بين ايدينا وارجلنا ، ولا نعصيه في معروف، فان وفيتم فلكم الجنة ، وان غشيتم من ذلك فأخذتم بحده الدنيا فهو كفارة له ، وان سترتم عليه الي يوم القيامة فأمركم الي ا لله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر "[2] .

وكأن الرسول صلى ا لله عليه وسلم أراد أن يحمل أهل المدينة – وقد قبلوا طائعين دعوة الاسلام – تكاليف ما قبلوا وتبعاته ، وان ظلت في مجملها تبعات الوظيفة السلمية، انطلاقا من مبدأ التدرج في الاعلام بالدعوة ، خاصة وأن الأمر بالجهاد لم يكن قد نزل علي رسول ا لله صلي

---

(١) الوارد ذكرها في سورة الممتحنة / الآية رقم ١٢ .

(٢) انظر : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٣٣-٣٤ .وفي رواية البخاري عن ابن شهاب اخبرني أبو ادريس الخولاني انه "سمع عبادة بن الصامت يقول : قال لنا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ونحن في مجلس: تبايعوني علي ان لاتشركوا با لله شيئا ولاتسرقوا ولاتزنوا ولاتقتلوا أولادكم، ولاتأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولاتعصوا في معروف فمن وفي منكم فاجره علي ا لله ومن اصاب من ذلك شيئ فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن اصاب من ذلك شيئا فستره ا لله فأمره الي ا لله ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه ، فبايعناه علي ذلك" . نظر : ابن حجر ، مرجع سابق ، طبعة الريان، مرجع سابق ، ج١٣ ، ص٢١٦ .

الله عليه وسلم بعد ولذلك أرسل معهم من يبصرهم بكيفية أداء تكاليف الدعوة ، وكان رسوله في ذلك مصعب بن عمير رضي الله عنه .

أما الخطوة الثالثة فقد اتخذ العقد فيها شكل البيعة علي الحرب والقتال ضد كل من ناوأ الدعوة، وذلك لما قدم في العام الثاني لبيعة العقبة الأولي سبعون رجلا وامرأتان من الانصار العقبة، وعاهدوا النبي صلي الله عليه وسلم أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم،ويكونون سلما لمن سالم، وحربا لمن حارب، فاختار منهم اثني عشرنقيبا ليكونوا قادة الدعوة في المدينة والقائمين علي تثبيت أركانها فيها، وهنا يجب ملاحظة الأتي:

١ - أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقد وكل الي النقباء تلك المسئولية ولم يسندها الي غيرهم من المهاجرين كشأن الحال في بيعة العقبة الأولي أراد ان يشعر الأنصار أنهم أضحوا أهل الاسلام وحماته وناصريه ، وليسوا غرباء عنه حتي يبعث معهم أحداً من غيرهم [١] تأكيدا لثقة الرسول فيهم من جهة ،وتطييبا لأنفسهم واشعارا لهم بأنهم قد صاروا أهلا لأن يعول عليهم ، ويؤمن جانبهم في حفظ الدين من جهة أخري.

٢ - أن الرسول بهذه البيعة الأخيرة أكمل للأنصار أسس الالتزام المتبادل في السلم والحرب بينه وبينهم ذلك أن البيعة الأولي - وتستقي أسسها من بيعة النساء كما سبق - ما كانت لتشبع حاجة المسلمين الي معرفة الموقف فيما لو اضطرتهم ظروف الدعوة الي الدخول في علاقات غير سلمية ، فجاءت البيعة الثانية لتخبرهم أن المسلم يجب أن يكون مسلما لمن سالم وحربا لمن حارب ، ليكون في سعة من أمره ، وعلي بينة مما قد يتعرض له، من صدود وصرف عن دعوته ، وعلي بينة من كيفية التعامل مع مثل هذه المواقف بالحسني والعدل سلما أو قتالا دون ظلم أو عدوان .

٣ - كذلك فان هذه النقلة العقيدية للدعوة من مكة الي المدينة - ولو مؤقتا حيث جاء نصر الله والفتح بعد ذلك ليدخل الناس في دين الله أفواجا ، وتتحطم قاعدة الوثنية في مكة - مهدت لنقلة أخري زمانية ومكانية ، كانت ضرورة حضارية كي يكتمل واجب الجماعة المؤمنة في اقامة الدعوة واقامة الدولة ، ومن ثم كي يصدق عليها وصف جماعة الدعوة والدولة [٢] .

---

(١) انظر : د. عماد الدين خليل ، مرجع سابق ، ص١٣٢.

(٢) انظر : مزيدا من التفاصيل عن بدء قبول الأنصار للدعوة ، وبيعتي العقبة في : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٢٩-٥٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٨٦-٩٦؛ ابن الاثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٦٠٩-٦١٦ ؛ ابن الكثير ، البداية ، مرجع سابق، ج٣ ، ص ص ١٤٧-١٦٨ ؛ ابن سعد ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ص ١٧٠-١٧١ ؛ د. البوطي ، فقه السيرة ، مرجع سابق ، ص ص ١٢٢-١٣٣ ؛ صفي الرحمن المباركفوري ، مرجع سابق ، ص ص ١٥٩-١٨٣.

المطلب الرابع : الهجرة النبوية والانتقال الي مركز الدولة :

فما أن مهدت قاعدة الدولة علي أساس من الالتزام الديني العقدي ، حتي شرع الرسول صلي الله عليه وسلم ينطلق منها لنقلة حضارية ، كانت بمثابة اختبار حقيقي لصدق أهل يثرب وثباتهم علي ما عاهدوا الله ورسوله عليه . فاذا به – وقد أمهم أن يكونوا للدعوة ركيزة وللدولة أساسا – يأمر أصحابه بالهجرة اليها ، ليلحقوا باخوانهم من الأنصار ، وكان أمره القاطع في ذلك" ان الله عز وجل قد جعل لكم اخوانا ، ودارا تأمنون بها" فخرجوا إرسالا [1] .

والأمر الذي لاجدال فيه أن خروج كثير من المهاجرين من مكة لم يكن سهل المنال، يسير الارتياد ، ذلك أن قادة قريش ومشركيها عز عليهم أن يخرجوا آمنين في أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأمتعتهم ، فساموا من استطاعوا النيل منهم سوء العذاب والتفرقة بينهم وبين عشيرتهم وأهلهم ، أو المنع من اصطحاب المال والمتاع ، ناهيك عن التضييق والمطاردة وغير ذلك من أصناف البلاء والفتن ، وما أمر ابي سلمة وزوجته وابنه ، وصهيب الرومي ، وعياش بن ابي ربيعة، إلا بعض نماذج للصبر علي البلاء قبل أن يهيىء الله لهم من أمرهم يسرا ومخرجا الي المدينة[2] .

وقد أقام لرسول بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة مثل اصحابه الي المدينة ، وقد أقام معه من حبس وفتن ، إلا علي بن ابي طالب ، وأبو بكر الصديق الذي كان يستأذن رسول الله صلي الله عليه وسلم في الهجرة فيقول "لاتعجل لعل الله يجعل لك صاحبا فيطمع أبو بكر أن يكونه" [3] ، ولكن قريشا لم تطق ما كان ينتظره الرسول من الهجرة وكان اشتغالها بالتضييق علي هذا الخروج ، واستعجالها بتدبير وسائل صده عنه، ومنعه منه ، أكثر ما أهمها من أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فاذا بها تعقد ما يشبه المؤتمر العاجل في دار الندوة ، لتنتهي منه بعد أخذ ورد وتبادل لوجهات النظر والمكائد بقرار تصفيته جسديا بمشاركة القبائل جميعا ولقد بالغت قريش في هذا الشطط وأوغلت فيه لما كانت تعلمه من حقائق صاحبت الاذن بالهجرة الي المدينة . وأولي هذه الحقائق علمها أن خروج المهاجرين بأمر الرسول صلي الله عليه وسلم ، وتضحياتهم العظيمة دليل صدق علي استعدادهم للفداء والشهادة ، أما وقد أذن الله لرسوله بالقتال فيما بعد فقد كانت قريش تتوقع منهم بأسا شديدا عند النزال معهم ، وثانية الحقائق علمها أن الانصار من الأوس والخزرج كانوا في حاجة ملحة الي حكمة الدعوة ،

---

(١) انظر : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٥٨ ؛ ابن كثير . البداية ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص١٦٩ ؛ ابن سعد ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ص ١٧٤-١٧٥ .

(٢) انظر مواقفهم الايمانية في : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٥٩-٦٦ ؛ صفي الرحمن المباركفوري ، مرجع سابق ، ص ص ١٨٤-١٨٥ .

(٣) انظر : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٦٨-٦٩ .

وحكمة قائدها لرأب ماتصدع بينهم ، ونبذ العداوات والاحقاد التي كانوا عليها قبل الاسلام ، وألمرت جولات متعددة من الحروب ، والقتال المتبادل ، فاذا ما تم ذلك - وقد توقعته قريش لما بدت تباشيره تلوح بعد بيعتي العقبة - كانت القوة للرسول صلي ا لله عليه وسلم وصحبه والمنعة أكبر علي قريش وعلي قادتها ومن تحالف معهم ، وثالثة الحقائق علمها كذلك ما للمدينة من أهمية الموقع وحسن المنزل بالنسبة لمقام رسول ا لله صلي ا لله عليه وسلم ، ثم للتجارة التي تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن الي الشام ، وقد كان لأهل مكة نصيب وافر من هذه التجارة ، ومن ثم كانت خشيتهم أن يتعرض أمن التجارة للتهديد والاختراق بعد استقرار الاسلام في المدينة، وتبقي الحقيقة الأخيرة وهي أهمها جميعا وتكمن فى علم قريش مدي ما أوتي الرسول صلي ا لله عليه وسلم من غاية القوة في التأثير ،وكمال القيادة ، وحسن الارشاد والتوجيه ، وحكمة الرأي وجودته - وقد خبرت كل ذلك فيه وهو بين ظهرانيها - ومن ثم مدي ما يمكن أن يؤتيه ذلك من اطيب الثمار في قوم - هم الانصار ومن لحق بهم من المهاجرين- دانوا له بالطاعة والانقياد والنصرة والولاء [1] . كانت قريش تعلم هذا وغيره كثير ، فلم تتباطأ في تنفيذ قرار دار الندوة فأحاطت قوتها التي انتخبتها من بين القبائل المختلفة بالنبي صلي ا لله عليه وسلم غير أنها ما كانت تعلم أن ا لله من ورائها محيط، وأن له تدبيرا آخر في احاطة نبيه بالنصر والحفظ والأمن واخراجه من بينهم سليما معافي بعد أن جعل ا لله من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا، فأعمي ابصارهم وافئدتهم [2] .

المطلب الخامس : فعاليات تأسيس الدولة في المدينة :

سعي الرسول صلي ا لله عليه وسلم منذ أن وطئت قدماه أرض المدينة الي ارساء فعاليات دولة الدعوة ، بعد أن هيأ أصحابه من المهاجرين والانصار لتبعات ذلك ، مؤيدا بالوحي تارة ، ومستشيرا اياهم تارة أخري ، وكان مما انجزه من هذه الفعاليات بناء المسجد ، والمؤاخاة بين المهاجرين والانصار، واعلان دستور المدينة فضلا على تأسيس بعض التراتيب الادارية التي سيرت بها أمور الدولة داخليا وخارجيا ، وتفاصيل هذه الفعاليات مبسوطة في مصادر التاريخ الاسلامي وكتب السيرة ، وكتب التراتيب الادارية ، والنظم الاسلامية التراثية وغير التراثية ، وحتي نتجنب

---

(١) انظر بتصرف : صفي الرحمن المباركفوري ، مرجع سابق ، ص١٨٧ .

(٢) في رواية ابن سعد في الطبقات الكبري "فخرج رسول ا لله صلي ا لله عليه وسلم وهم جلوس علي الباب ، فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرها علي رؤسهم ويتلوا (يس والقرآن الحكيم) حتي بلغ (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) ومضي رسول ا لله صلي ا لله عليه وسلم فقال قائل لهم : ما تنتظرون ؟ قالوا محمدا قال: خبتم وخسرتم قد وا لله مر بكم وذر علي رؤسكم التراب ، قالوا وا لله ما ابصرناه وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم " . انظر : ابن سعد ، مرجع سابق ، ج١ ، ص١٧٦. وفي السياق نفسه انظر : تفسير ابن كثير لقوله تعالي "واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر ا لله وا لله خير الماكرين" سورة الأنفال / الآية رقم ٣٠ في الجزء الثاني ص ص ٣٠٢-٣٠٣ .

تكرار ما سبق ان تناولناه بتفصيل وشرح للدلالات السياسية لهذه الفاعليات في موضع آخر [١] ، ويكفي هنا أن يضاف الي ما أثبت آنفا مايلي :

١ - أن الهجرة لم تكن مجرد نقلة مكانية دافعها الهروب من صدود قريش وبطشها ، واليأس من اسلام اهلها - والاما عاد اليها الرسول صلي الله عليه وسلم ليفتحها بعد الهجرة - الي حيث قبول الأنصار وأمنهم ، بل كانت تتويجا لجولات وجولات من جهاد الجماعة المؤمنة - منذ بدأ الرسول يشكل أعضاءها بعد تلقيه الوحي من السماء في مكة وحتي اذن له بتركها - لانشاء دولة الدعوة ، ودأبها واجتهادها في البحث عن مركز تحصين الدعوة والانطلاق بها الي غيرها من الجماعات التي لم تكن قد وصلتها بعد .

٢ - كذلك لم تكن الهجرة فراراً من شظف الحياة وضيقها وقسوتها واضطهادها ، بفعل ممارسات أهل مكة لبدء مرحلة جديدة من رغد الحياة ودعتها وامنها ، بل كانت مرحلة أولي - تلتها مراحل أخري - معبأة بتبعات جهادية واجتهادية في تأكيد مكانة الدولة بين الدول المحيطة بيثرب ، ونشر دعوتها بينها ، واعداد العدة، للقتال في سبيلها ، في مواجهة أعداء الداخل من المنافقين واليهود والمشركين ، أو قبل اعداء الخارج علي تنوع طوائفهم وهوياتهم ، وخاصة من الروم والفرس .

٣ - كشفت هذه الفعاليات الأولية عن حقيقة الصفات القيادية السياسية للنبي صلي الله عليه وسلم أو بعبارة أدق أظهرت حقيقة ثراء الجانب السياسي في القيادة النبوية وقدرتها علي الجمع بين مقاصدالوحي ومصالح الأمة، والأخذ بيد الجماعة السياسية والاستجابة لمتطلبات تأسيس دولتها علي هدي من الوحي،إن في استجلاء قيمه وأحكامه - قرآنا وسنة - أو في استنباط منهج العمل بهما داخل المدينة .

٤ - ثم إن تنويع هذه الفعاليات ، لتؤدي أكثر من واجب ، قبل المجتمع الجديد في المدينة كان من مراميه اثبات أن مقاصد الدعوة فيهامن السعة والتنوع والشمول بحيث يستطيع القائم علي قيادة المجتمع وفقا لها أن يجد فيها ما يسد حاجة أمته وتدبير أمور معاشها ، في مناحيها العقيدية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والقيمية كافة . وهنا نلفت النظر الي أن بناء هذه الفعاليات الثلاث (- المسجد والمؤخاة والوثيقة -) قد زامنه بناء فعاليات أخري خادمة ومهيئة لها ، ولتطور الدولة بعد ذلك ، تجسدت في شكل مؤسسات ونظم وأبنية من وزراء ومشيرين ، وسقاية، وكتابة ، وترجمة ، وحمل الخاتم ، وامارة الحج ، وتعليم القراءة ، والافتاء، وتعليم الفقه ، واقامة الصلاة ، والأذان ، والقراء والسفراء ، والخطباء وكتاب الجيش ، وفارضي العطاء ، ورؤساء الجند ، وغيرهم ليوازن بين متطلبات الدعوة ومتطلبات قيادة المجتمع علي مقتضاها [٢] .

---

(١) انظر : مصطفي منجود ، الابعاد السياسية للامن في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ص ١٣٠-١٤٦ .

(٢) انظر : د. محمد عمارة ، الدولة الاسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية ، مرجع سابق ، ص ص ٢١٦-٢١٧.

٥ - كما ان البدء بالمسجد بناء وتوجها كان اشهارا عاما داخل المدينة ، واعلاما شاملا لمن حولها أن هوية الدولة الجديدة تبدأ بتسليم الوجهة لله، والاعتصام بوحدانيته التي ما جاءت الصلاة - مهمة المسجد الأولي - إلا تأكيدا لها وتذكيرا بها، فالقبلة واحدة ، والاذان واحد ، والامام واحد، والصف واحد متوحد ، وهيئة الصلاة واحدة ، وأركانها وفرائضها وسننها من لدن منهج يعتمد علي مصدر واحد هو الوحي ، وهكذا كأنما أراد الرسول صلي الله عليه وسلم أن يؤكد أن بدء حركة أى مجتمع اسلامي في تدبير نظامه ومعاشه لابد أن تبدأ من أسس تربوية سليمة ، معتمدة علي طهارة الظاهر والباطن ، ونقاء المقصد، واخلاص النية، واستقامة الصراط، وحسن التقوي، وليس افضل من المسجد في تلقين هذه الأسس، وتعاهدها خمس مرات في اليوم والليلة، بالرعاية والتوبة والاصلاح والتقويم .

٦ - ويضاف الي ماسبق ان اعتبار المؤاخاة بين المهاجرين في البداية ، ثم بينهم وبين الأنصار بعد ذلك من مقدمات توحيد الجماعة المؤمنة ، يظهر مدي حرص القيادة النبوية علي اسقاط كل اعتبارات التفرقة الدنيوية من جاه ، أو مال ، أو متاع ، أو قبيلة ، أو موطن ، أو نسب ، أو عنصر، أو ما عداها في ولاء واحد، وتوظيفها لصالح انتماء واحد لله وحده ودون غيره ، الأمر الذي لم يكن بعده ثمة حرج ، أو مدخل للشعور بالغربة ، أو عدم التكيف في المقام الجديد بالنسبة للمهاجرين ، ناهيك عما اتاحه من فرص لدفن الاحقاد والعداوات القبلية بين الأنصار ، ومن هنا يتبين لنا مدي بلاغة قول النبي صلي الله عليه وسلم "تآخوا في الله اثنين اثنين " [١] حيث اسقاط كل اعتبار في المؤاخاة إلا ما كان مؤديا الي الله ، وعلي شرعه ونهجه ، دون ما عداه . وعندها نزل القرآن ليزكي صنيع المهاجرين والأنصار بهذه المؤاخاة في قوله تعالي "للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون علي أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " [٢] .

٧ - ويبقي أن الرسول صلي الله عليه وسلم بكتابة الوثيقة ، أو الصحيفة ، لتكون عهد التزام واضح لمن أقر بما فيها ، وضع كل طرف من أهل المدينة امام التزامات واضحة ومسئوليات محددة ، مسلما كان أو غير مسلم ، لينهي بذلك أوضاعا وعلاقات وتحالفات وتحركات كانت المدينة تموج بها غداة هجرته الي المدينة ، ويقيم بدلا منها صورا جديدة لما ينبغي أن تقوم عليه جماعة ارتضت نهج الاسلام ضابطا لحركتها وحركة تعاملها مع الآخرين ، ولما ينبغي أن تنتهي

---

(١) انظر : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٩١ . انظر رواية ابن سعد : مرجع سابق ، ج١، ص ص ١٨٢-١٨٤. وعن دلالات هذه المؤاخاة وما فيها من جوانب انظر : د.البوطي ، فقه السيرة ، مرجع سابق ، ص ص ١٥٥-١٥٩.

(٢) سورة الحشر / الآيتان رقم ٨ ، ٩ .

عنده جماعات أخري – غير مسلمة – مادامت قد أقرت بسيادة القيادة النبوية وهيمنة ما جاءت به من تشريع علي كل سكان المدينة [1] .

المطلب السادس : الدولة وارهاصات التعامل الخارجي :

لم تقف واجبات الدولة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به –وهو مقتضي السياسةالشرعية– عند حدود يثرب ، فثمة مقتضيات أخري كانت تدل علي ان الفعاليات السابقة لم تكن سوي تمهيدات أولية لممارسة بقية واجبات الدولة فيما وراء هذه الحدود ، ومنها مقتضي الأمر الالهي بتبليغ الدعوة للناس كافة ﴿يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته وا لله يعصمك من الناس﴾ [2] ، ومقتضي عالميتها ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ [3] ومقتضي الأمر بالانذار بعاقبة الصد عنها ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾ [4] حيث ضرورة وصول حقيقة الانذار الي من يمكن انذارهم حيثما حلوا وأقاموا ، ومقتضي ظهور الدين كله بالهدي ودين الحق ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره علي الدين كله ولو كره المشركون﴾ [5] ومقتضي الحذر والحيطة من حالة التربص ، وارادة النيل من الدولة التي كانت شغل ، أو هاجس قريش ومن ساندها ، ومقتضي الأمر بالجهاد والاذن بالقتال لكل من حال دون وصول الدعوة الي الناس ، ومناصبة أهلها العداوة والبغضاء ، سواء داخل يثرب، أو خارجها ﴿اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان ا لله علي نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا ا لله ولولا دفع ا لله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم ا لله كثيرا ولينصرن ا لله من ينصره ان ا لله لقوي عزيز﴾[6] .

لكل هذه المقتضيات بدأ تحرك الدولة لاعلان حقيقة رسالتها الحضارية واعلائها ، وابلاغ وظيفتها العقيدية الي من حولها دعوة وانذارا يسندهما منطق العزة والقوة والاستعلاء بالحق [7] وقد اتخذ ذلك صورا عديدة يأتي في مقدمتها :

---

(١) انظر ما اوردناه عن هذه الصحيفة ومصادرها .

(٢) سورة المائدة / الآية رقم ٦٧

(٣) سورة سبأ / الآية رقم ٢٨ .

(٤) سورة المدثر / الآيتان رقم ١ ، ٢ .

(٥) سورة التوبة / الآية رقم ٣٣ ، سورة الصف / الآية رقم ٩ .

(٦) سورة الحج / الآيتان رقم ٣٩ ، ٤٠

(٧) في التعريف بالوظيفة العقيدية للدولة بصفة خاصة : انظر د حامد ربيع ، نظرية القيم السياسية، مرجع سابق ، ص ص ٢٣١ – ٢٤٤ ، اما عن الوظيفة العقيدية للدولة الاسلامية ، فانظر : حامد عبد الماجد قويسي ، الوظيفة العقيدية للدولة الاسلامية ، القاهرة : دار التوزيع والنشر الاسلامية ، الطبعة الأولي ١٣١٤هـ – ١٩٩٣م .

أ – التعامل القتالي العضوي مع قريش ، ومن كان علي شاكلتها من المشركين عموما عبر سلسلة من الغزوات والسرايا التي بدأت أولي انطلاقاتها قبل غزوة بدر ، بهدف "استكشاف الطرق المؤدية الي مكة وعقد المعاهدات مع القبائل التي مساكنها علي هذه الطرق ، واشعار مشركي يثرب ، ويهودها، واعراب البادية الضاربين حولها ،بأن المسلمين اقوياء ، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم " [1] ، ثم تتابعت بعد ذلك الغزوات والسرايا تترى [2] ، وكان من أشهرها بدر الكبري ، واحد ، والخندق ، وبني قريظة ، وبني المصطلق ، وخيبر، ومؤتة ، وفتح مكة ، وحنين ، والطائف ، وتبوك ، وغيرها من وقعات ومنازلات افاضت في تفاصيلها المصادر التاريخية ومصادر السيرة النبوية ، فكانت بعد التشريع الالهي مدخلا لارساء القواعد الأساسية للقتال في الاسلام في فرضه علي الكفاية والعين ، وأسبابه واغراضه ، ومثله ، واخلاقه ، واساليبه، وفنونه ، وسيرته ، ووجهاته ، وانقضائه مطلقا أو مؤقتا ، وآثاره بعد النصر أو الهزيمة [3] .

---

(١) انظر صفي الرحمن المباركفوري ، مرجع سابق ، ص٢٣١ . وانظر حصرا لاهم الاهداف التي حققها الرسول صلي الله عليه وسلم من هذه المقدمات في : د عماد الدين خليل ، مرجع سابق ، ص ص ١٧٤-١٧٦ .

(٢) في رواية البخاري عن ابي اسحاق قال " سألت زيد بن ارقم : كم غزوت مع رسول الله صلي الله عليه وسلم ؟ قال: سبع عشرة قلت : كم غزوت النبي صلي الله عليه وسلم؟ قال : تسع عشرة" ، وعن البراء قال : غزا مع رسول الله صلي الله عليه وسلم ست عشرة غزوة" . انظر : ابن حجر ، مرجع سابق ، طبعة الريان ، ج٧ ، ص٧٦٠ ؛ وفي رواية مسلم عن ابي اسحاق "ان عبد الله بن يزيد خرج يستقي بالناس ، فصلي ركعتين ، ثم استسقي قال فلقيت يومئذ زيد بن ارقم وقال : ليس بيني وبينه غير رجل ، أو بيني وبينه رجل قال فقلت له : كم غزا رسول الله صلي الله عليه وسلم قال تسع عشرة : فقلت : كم غزوت أنت معه؟ قال سبع عشرة غزوة قال فقلت فما اول غزوة غزاها ، قال ذات العسير أو العشير " وعن ابي اسحاق عن زيد بن ارقم سمعه منه "ان رسول الله صلي الله عليه وسلم غزا تسع عشرة غزوة ، وحج بعدما هاجر حجة لم يحج غيرها حجة الوداع" وعن ابي الزبير "انه سمع جابر بن عبد الله يقول غزوت مع رسول الله صلي الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة . قال جابر : لم اشهد بدرا ، ولا احد منعني أبي ، فلما قتل عبد الله يوم احد لم اتخلف عن رسول الله صلي الله عليه وسلم في غزوة قط" ، وقد خرج مسلم في الباب احاديث اخري للامام النووي ، شرح صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج١٢ ، ص ص ١٩٥-١٩٧؛ وروي ابن سعد "كان عدد مغازي رسول الله صلي الله عليه وسلم التي غزا بنفسه سبعا وعشرين غزوة ، وكانت سراياه التي بعث بها سبعا واربعين سرية وكان ما قاتل فيه من المغازي تسع غزوات : بدر القتال ، واحد ، والمريسيع ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، وفتح مكة، وحنين، والطائف .وهذا ما اجتمع لنا عليه. انظر : الطبقات الكبري، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٣-٤ وقد اتفق ابن هشام مع ابن سعد في جملة ماغزا الرسول صلي الله عليه وسلم بنفسه ، وجملة ما قاتل منها فيها ولكنه اختلف معه في جملة السرايا والبعوث ، فقال "وكانت بعوثه صلي الله عليه وسلم وسراياه ثمانيا وثلاثين" . انظر : السيرة النبوية ، مرجع سابق ، ج٤ ، ص ص ١٨٨-١٨٩ . انظر مالورده ابن كثير في البداية والنهاية ، مرجع سابق ، ج٣، ص ص ٢٤٠-٢٤٣ .

(٣) انظر بعض الدلالات الفقهية والسياسية والحضارية لهذه الوقائع – غزوات وسرايا – في :

ب - ارسال الرسل الي ملوك الدول وزعماء الأمم خارج المدينة ، يدعوهم النبي صلي الله عليه وسلم سنة ست من الهجرة الي الاسلام ، وكتب اليهم بذلك ، يروي ابن اسحاق أن النبي صلي اله عليه وسلم استنهض اصحابه كي يحملوا رسائله الي هؤلاء الملوك والزعماء فقال "ان الله بعثني رحمة وكافة فأدوا عني يرحمكم الله ، ولا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون علي عيسي ابن مريم . قالوا وكيف يارسول الله كان اختلافهم ؟ قال : دعاهم لمثل ما دعوتكم له . فأما من قرب به ، فأحب وسلم ، واما من بعد به ، فكره وأبي ، فشكا ذلك عيسي منهم الي الله فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذي وجه اليهم [1] . وفي رواية لابن سعد " فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد . وذلك في المحرم سنة سبع وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه اليهم " [2] .

ج - أخذ المواثيق علي القبائل العربية التي دخلت في الاسلام ، وكتابة العهود والمواثيق التي تحقق لهم الحصانة الاسلامية الكاملة ، من حقن الدماء ، وحفظ الأنفس والأموال والأعراض واقرارهم علي ما كان تحت ايديهم بالعدل ، مقابل الاستقامة علي دين الاسلام واقامة شعائره والتزام مقتضياته التي جاء من أحكامها في كثير من العهود والمواثيق اقامة الصلاة وايتاء الزكاة ،

- د. البوطي ، فقه السيرة ، مرجع سابق ، مواضع متفرقة ؛ دعماد الدين خليل ، مرجع سابق ، مواضع متفرقة ؛ صفي الرحمن المباركفوري ، مرجع سابق ، ص ص ٥٢٢-٥٢٤ ؛ مصطفي منجود ، الأبعاد السياسية للأمن في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ص ١٤٢-١٤٥ .

(١) انظر : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٤ ، ص١٨٧ .

(٢) انظر : ابن سعد ، مرجع سابق ، ج١، ص ص ١٨٩-٢١٢ . وانظر خبر هؤلاء الذين ارسلهم الرسول صلي الله عليه وسلم يبلغون دعوته الي الملوك والرؤساء في : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٤ ، ص ص ١٨٦-١٨٧ ؛ الطبري، تاريخ الامم والملوك ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٢٨٨-٢٩٧ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٩٥-٩٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، مرجع سابق ، ج٤ ، ص٢٦٢ .

اما عن مضمون رسائل النبي صلي الله عليه وسلم الي هؤلاء الملوك والرؤساء فقد ثبت ورودها في أكثر من مصدر . انظر علي سبيل المثال : محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م ، ص ص ٤٦-٥٤ ؛ البقلاني ، مرجع سابق ، ص٤٢ ؛ احمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ص ٥١-٣٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، مرجع سابق ، ج٤ ، ص ص ٢٦٢-٢٧٣ ؛ محمد يوسف الكاندهلوى ، حياة الصحابة، القاهرة : مكتبة الدعوة الاسلامية ، ١٣٩٩هـ ، ج١ ، ص ص ٨٢-١٠١؛ ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ص ٧١-٧٥ .

ومفارقة المشركين ، وطاعة الله ورسوله ، واعطاء خمس الله وسهم النبي صلي الله عليه وسلم من المغانم ، وتأمين السبل ، والنصح في دين الله [1] .

د- كتابة العهود لأهل الكتاب من غير المسلمين الذين قبلوا الدخول في هوية الدولة علي أن يعطوا الجزية والانتهاء عند شرائط ما جاء في هذه العهود ، وعدم خرقها ، حتي يظل أمر اقرارهم - علي ما كانوا يدينون من نصرانية أو يهودية أو مجوسية - التزاما واجبا علي المسلمين كافة [2].

هـ - استقبال الوفود من قبائل العرب التي قدمت الي المدينة تعلن انقيادها لطاعة الله وطاعة رسوله ، والاقامة علي الاسلام ، وهي القبائل التي تأخرت في اسلامها الي ما بعد فتح مكة وغزوة تبوك واسلام ثقيف التي سامت النبي صلي الله عليه وسلم سوء العنت والعداوة قبل الهجرة الي يثرب، ولابن هشام فضلا في بيان سبب هذا التأخير ، اذ يذكر أن العرب كانت ترقب أمر قريش ، وموقعها من الاسلام ومن الرسول صلي الله عليه وسلم ، وذلك أن قريشا -كانوا عند العرب - أمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت الحرام ، وضريح ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، وقادة العرب لاينكرون ذلك ، وكانت قريشا هي التي نصبت لحرب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الاسلام ، وعرفت العرب أنه لاطاقة لهم بحرب رسول الله صلي الله عليه وسلم ولاعداوته ، فدخلوا في دين الله كما قال عز وجل "افواجا" يضربون اليه من كل وجه [3] .

---

(١) لورد ابن سعد الكثير من هذه الكتب ومنها ما كتبه النبي صلي الله عليه وسلم لمن اسلم من جذس من لخم ، وخالد بن ضماد الازدي ، ونعيم بن اوس اخي تميم الداري ويزيد بن الطفيل الحارثي ، وقيس بن الحصين ذي الغصة ، وبني معلوية بن جرول الطائيين ، وعامر بن الاسود بن عامر، وبني جوين ، وجنادة الأزدي وقومه ومن تبعه ، وبني زرعة وبني الربعة من جهينة ، وبني جعيل من بلي ، واسلم من خزاعة ، وعمرو بن معبد الجهني ، وبني غفار ، واهل هجر وغيرهم كثير . انظر : الطبقات الكبري ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ص ٤٤-٨٨ ؛ د. محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق ، مرجع سابق ، ص ص ٩٤-١٥٩.

(٢) ومن هذه العهود العهود مع اهل أيلة -وهي مدينة علي خليج العقبة من شماليه- من النصاري ، ونصاري نجران ، وبني عريض ، وبني غاديا من اليهود - انظر هذه الأمثلة وغيرها في : ابن سعد ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ص ٢١٢-٢٢١ ؛ احمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، مرجع سابق ، ج١ : ص٥١، ص ص ٧٥-٧٨ ، د. محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق ، مرجع سابق ، ص ص ٥٦-٦١، ص ص ١١٦-١٣٢.

(٣) انظر : ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٤ ، ص ١٤٦ . وانظر خبر هذه الوفود واقسامها وما دار بينها وبين الرسول من خطب ومناظرات في :المرجع السابق ، ج٤ ، ص ص ١٤٦-١٧٩ ؛ الطبري ، تاريخ الامم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٣٨٨-٣٩٩ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ١٥٤-١٦٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، مرجع سابق ، ج٥ ، ص ص ٤٠-٩٥ ؛ المباركفوري ، مرجع سابق ، ص ص ٥٣٧-٥٢٥ ؛ احمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، القاهرة : مكتبة الحلبي ، الطبعة الأولي ، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م ، ج ١ ، ص ص ١٦٣-١٧٢ .

وهذه الصور الخمس - التي تم عرضها بإيجاز - لايتسع الوقف كي نتوقف أمام كل واحدة منها بالتفصيل ، خاصة أن كل واحدة لاتخلو من بعض الدلالات السياسية ، بيد أن مقام التحليل هنا يسمح بايراد بعض هذه الدلالات فى التعامل الخارجى عليها جميعا ، ومن ذلك :

١ - إن نداء الفطرة الايمانية لدي كثير من القبائل العربية التي دخلت في الاسلام خارج المدينة كان أقوي في تلبية داعي الايمان - لما عرضت عليها الدعوة - من دعاوي الشرك والوثنية التي كان معظم هذه القبائل يدين بها ، وقد عجل بسبق هذه القبائل ثلاثة امور، أولها فاعلية الدعوة وفاعلية حامليها في مس أصول ما كانت عليه من معتقد فهزته وفندت أسسه ، والثاني لغة العزة والقوة التي حمل بها خطاب الدعوة ، وادراك القبائل ان مصدرها - أي اللغة - لم تكن ارادة بطش واكراه بقدر ما كان ارادة تصميم وجهاد علي اخراجها مما كانت فيه من ضلال وغواية ، والثالث ما وجدته القبائل في دولة النبوة من نموذج للتماسك والتآخي والأمن بفعل التغيير العقيدي الذي أحدثه الاسلام في المدينة ، وسرت آثاره يانعة في مناحي الحياة كافة .

٢ - كذلك فان ارسال الرسل والسفراء الي ملوك الأرض وحكام دولها - وكان فيهم من فيهم من الهيمنة والسطوة واتساع النفوذ - كان اعلاما وانذارا في آن واحد اعلاما بأن الدعوة خطاب عالمي لغته موجهة الي الحكام والشعوب عربا كانوا أو عجما داخل الجزيرة العربية وخارجها ، وأن جوهر هذا الخطاب أن تستعلي عقيدة التوحيد علي الربوبيات الزائفة واتخاذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، وان الاسلام به - أي الخطاب - لايعادي اليهودية أو النصرانية أو المجوسية التي كانت تدين بها بعض الدول والممالك التي خوطبت خارج المدينة وانما هو الرسالةالخاتمة التي جاءت تتمة لما قطعه أنبياء الله منذ نوح ومن تلاه من رسل الله صلوات الله عليهم وحتي محمد صلي الله عليه وسلم من أشواط في طريق الدعوة الي الله . وأما الانذار فقد بدا في قوة الخطاب التي لم تخل من تهديد ووعيد بالحق بأن أعراض السلطات الحاكمة ، ورفضها الاستجابة لدعوة رسل النبي صلي الله عليه وسلم ومنعهم ابلاغها شعوبها يعني أن ممالكها وزعاماتها وعروشها قد آذنت بزوال ، وأن جيوش الدعوة الجديدة ستنساح قريبا في مشارق الارض ومغاربها لتزاول هذا الواجب الجهادي الحضارى .

٣ - وأن عهود الذمة التي أبرمت لأهل الكتاب تؤكد أن ما جاء في صحيفة المدينة أو وثيقتها من جواز موادعة اهل الكتاب ومعاهدتهم واقرارهم علي دينهم وأموالهم وفق شروط الذمة بينهم وبين المسلمين لم يكن مجرد تعهد شكلي أو التزام صوري ، وانما كان منهج حياة الزم المسلمون به أنفسهم لما الزمهم الله تعالى به في التعامل الشرعي بينهم وبين غيرهم ، والتزام طريقة واضحة في أن من قبل القيام علي ملته وشرعته اليهودية أو النصرانية أو المجوسية له ذمة الله وذمة رسوله ثم ذمة المسلمين ، انطلاقا من تراحم وتسامح انسانيين ، ونزولا عند أحكام شرعية موحي بها تقوم علي احسان التعامل والبر والقسط والرحمة لكل من انضوي في رعوية الدولة الاسلامية

ما دامت العهود مرعية ، ومادام كل طرف - مسلما وكتابيا - عند شروطه التي قبلها طواعية دونما اكراه مادي أو معنوي.

٤ - أن مجيء الغزوات والسرايا في عصر النبوة -علي تنوعها وتعدد جولاتها وتقلب الدائرة مع المسلمين أو عليهم - يثبت أن الجماعة المؤمنة التي كانت مستضعفة في مكة قد أضحت قادرة مع الدولة والتمكين في المدينة ، والاذن بالقتال ، علي ان تنفض عنها غبار الاستضعاف ، وأصبح لها شوكة وهيبة تستطيع من خلالهما التنقل من منطق الاقناع والحوار بالحكمة والموعظة الحسنة لابلاغ الدعوة الي منطق المنازلة والالتحام العضوي - ان لزم الأمر - جهادا وقتالاً في سبيلها ، ويشير تعدد الغزوات والسرايا الي أن جولات النزال لم تأت دفعة واحدة ، و لم تأخذ طورا محددا ، وانما تطورت بتطور الدعوة وتطور الموقف الرافض منها وانها حتي في هذا التطور لم تكن علي وتيرة واحدة حسب طبيعة الموقف الرافض ومداه ، وتقدير قيادة النبوة لقوته وضعفه ، لكن تبقي الدلالةالمهمة فوق كل ذلك ، وهي أن تقلب المسلمين بين النصر والهزيمة في بعض المواقع القتالية - غزوة أو سرية - كان من قبيل الدروس الابتلائية لتصحيح مواقع الاقدام ، وتمحيص المؤمنين ومراجعة الذات ، وتجديد الايمان وتبين مواقع الخلل والنقص وتطهير الصف، ومعرفة سنن ا لله في الظهور والغلبة ، والضعف والهزيمة.

٥ - ثم ان استقبال وفود بعض القبائل داخل المدينة بعد انتقال الدعوة الي بعضها الآخر خارجها ودخول الكثير من الفريقين في الاسلام له دلالته في أن المدينة كانت بمثابة مركز الثقل السياسي الذي تمتع بنشاط سياسي كبير ، وفاعلية في العملية الاتصالية بينه وبين غيره من المراكز الأخري ، في مجال نشرالدعوة ان بانتقال ممثلي السلطة السياسية الي حيث الاعلام والانذار بالدعوة علي نحو ما سلف ، أو باستقبال وفود القبائل وانتقالهم اليه ، كما له دلالته في منطقية التساؤل عن كيفية تحول القبائل العربية عما دأبت عليه وألفت فيه آباءها الأولين منذ القدم من عبادة ما سوي ا لله بهذه السرعة في تزامن احيانا ، وفي تلاحق أو تتابع أحيانا اخري .ان ما ينبغي ملاحظته في هذا السياق هو ان منطقية التساؤل لاتعني بحال من الأحوال التشكيك أو التشكك في مدي اسلامية مسلك هذه القبائل أو في صدق نواياها الايمانية بقدر ما تعني القول بأن هذه الاسلامية وتلك النويا كانت في حاجة الي تمحيص وبلاء شديدين ليعلم الصادق من هذه القبائل في ايمانه من الكاذب . ويبدو أن المشيئة الإلهية أرادت التعجيل بهما عقب انتقال النبي صلي ا لله عليه وسلم الي ربه ، وذلك لما اكتشف أهل السابقة الايمانية من المهاجرين والانصار ان اسلام كثير من القبائل التى دخلت فيه ابان عصر النبوة لم يكن ثابتا أو قويا راسخا لما دعاها داعي الارتداد، اذ انساقت وراءه ملبية ، خالعة ما كانت قد اسلمت عليه وان كان حتي حين كما سيرد لاحقا .

٦ - وأخيرا فان منطق التعدد في استخدام أدوات التعامل الخارجي قد وجد سبيله علي نطاق واسع في عصر النبوة ، واذا "كان البعض يري ان التقاليد التي سادت في الاسرة الدولية

في نهاية العصور الوسطي كانت تجعل التعامل أساسه قتال أم سلام ، وليست هناك بدائل ، وان الرسول صلي ا لله عليه وسلم منذ حكمه للمدينة وضع تقاليد واضحة تذكرنا بما نسميه اليوم تعدد أدوات التعامل الخارجي فقدكان ينطلق في ممارساته من خلال أدوات ثلاث تمثل دائرة تسمح للتحرك بأن يستند الي عدة مرتكزات ، القتال ثم التفاوض ويكمل ذلك المصاهرة. ففكرة المصاهرة لم تقتصر علي الرسول صلي ا لله عليه وسلم بل تعدت ذلك الي المقربين منه واعوانه " [1] فانه باستطاعتنا الاضافة الي هذه الأدوات الثلاث – استخلاصا مما عرض آنفا – عهود الأمان والذمة لغير المسلمين واتفاقيات الصلح (صلح الحديبية علي سبيل المثال) واستقبال الوفود ، وتبادل الرسل والسفراء ، والحرب النفسية (الملابسات التي صاحبت فتح مكة) فضلا على التوظيف الفعال للأداة الاتصالية بالخطب والرسائل والمناظرات والمواعظ والوصايا علي المستوي الفردي والمستوي الجماعي من حيث الجهة المتلقية للاتصال والمخاطبة به .

المبحث الثاني : التطور الثاني : تثبيت أسس بناء الدولة :

كانت المدينة ابان قيادة النبوة تموج ببعض الحركات التي حاولت النيل من وحدة الدولة ، وقد تزعم قيادة هذه الحركات طوائف شتي من المنافقين واليهود ، ناهيك عن رؤوس الفتنة الذين أرسل اليهم الرسول صلي ا لله عليه وسلم يدعوهم الي الايمان فردوا عليه بالانكار وادعاء مشاركته النبوة، غير أن الوحي لم ينفك يتنزل علي النبي صلي ا لله عليه وسلم يحذره خطورة المفسدين بطوائفهم وأشكالهم كافة ، ويحدد له منهج السلوك القويم في التعامل معهم ، ويعدد أمامه البدائل ليكون في سعة من أمره حال تصفية ما كانوا عليه من أباطيل وخصومة للدعوة ، قيادة ودولة وأمة، لذلك وجدناه يقابل مكرهم بأساليب شتي منها فضح مخططاتهم ومكائدهم ، وتحذير المسلمين من مغبة التعامل معهم ، وتأليف قلوب بعضهم ببعض العطايا ، واغلاظ القول والعمل ، والاجلاء من المدينة خاصة اليهود والمنازلة والقتال ، وتجنب مفاسدهم وان اخذت ظاهرا غير ذلك الي آخره من الأساليب الجهادية التي فهمها الرسول صلي ا لله عليه وسلم من قوله تعالي ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ [2] والتي استطاعت من خلالها القيادة

---

(١) انظر : د حامد ربيع ، الاسلام والقوي الدولية ، القاهرة: دار الموقف العربي ، الطبعة الأولى، ١٩٨١ ، ص١٠٤ .

-وانظر من المصادر الأجنبية التى تعرضت لتطور الدولة فى العصر النبوى على سبيل المثال:-

- M.W.Watt , Muhammad at Mecca , Oxford : The Calender Press , 1953, Watt , Muhammad at Medina, Oxford : The Calender Press, 1956 , Watt , Muhammad , Prophet and Stateman , Oxford : The Caliphates Press , 1961 , Hugh Kennedy , The Prophet and the Calender , London and New York , Longman , 1986 , pp 29-49 ; Ali Doshiti , op.cit pp 74-165 ; Edward Attiyah , The Arabs , Beirut : Libraire du Liban , 1968 , pp 1-14 ; Malise Ruthven , Islam in the World , New York , Oxford : Oxford University Press , Massachusetts : Clau du Stark & Co., 1975 , pp 1-139 ; Francesco Gabrieli , Muhammed and The Conquests of Islam , New York : World University Library ,1968 ,pp 85-90; Akran Raslam , op.cit , pp 52 - 112 ; Manoucher Payder , op. cit. , pp 70-85.

(٢) سورة التوبة / الآية رقم ٧٣ ، وسورة التحريم / الآية رقم ٩ .

النبوية ان تجنب الجماعة المؤمنة الآثار السلبية لدعاة تمزيق صفها ووحدتها ، أما وقد انقضي الوحي ومضت قيادة النبوة بوفاة النبي صلي الله عليه وسلم فقد أضحي احتمال خروج رءوس الفتنة مرة اخري واردا وقد جاءت نذر الارتداد في رسالة مسيلمة الكذاب الي النبي صلي الله عليه وسلم في أواخر أيامه وعهده بالدنيا [1] فاتحة اختبار لايعدو في حقيقته – رغم تعدد جوانبه – إلا تحديا لقوة بناء الدولة ومدي ثباته في قواصم هذا التحدي ، وقد مثل اجتماع كلمة المسلمين علي متابعة الايناع الحضاري بعد عصر النبوة ، باختيار خليفته الأول ابي بكر الصديق ليقودهم في هذه المتابعة بداية التصدي الحقيقي لسلسلة القواصم التي تداعت عليهم بعد انقضاء القيادة النبوية علي النحو التالى [2] .

المطلب الأول : قاصمة الاختلاف في الاختيار السياسي وعاصمة الاتفاق على الخليفة الأول :

فقد كان البحث عمن يتولي قيادة الدولة بعد الرسول صلي الله عليه وسلم في مقدمة الاولويات التي جابهت المسلمين وبعبارة ادق في مقدمة الواجبات التي كانت تمليها ضرورة شرعية وعقلية ذلك أن أمر اقامة السلطة السياسية ما كان ليترك اعتباطا أو سدي دون تدبير أو رعاية لكون الوحي قد انقطع رسالة ورسولا في الجماعة السياسية كما أن بقاء هذه السلطة فى المنهج الاسلامي ليس أمرا طارئا أو مؤقتا يتوقف علي شخص ما أو تحدده قيادة ما ، نبوية أو غير نبوية ، فضلا على أن شرعيتها لايتوقف اساسها علي اعتبارات شخصية سرعان ما تسقط بسقوط صاحبها ، وإلا كانت بلا أسلس أو اصول ، ولأضحت في ذلك مثل أي نمط من أنماط السلطة التي تتقلب بين مناهج مختلفة للحكم ، ومن ثم للهوية والواجبات دون اعتبار أو مراعاة لمنهج أبدي يعلوها ويخلع عليها بصماته في طبيعتها وهويتها وواجباتها ومن ثم فى شرعيتها . واقع الحال اذن أن واجب اقامة السلطة السياسية في الاسلام منوط بأبدية تعاليم الوحي الإلهي التي

---

(١) يذكر ابن هشام أن مسيلمة كتب الي رسول الله صلي الله عليه وسلم " من مسيلمة رسول الله الي محمد رسول الله: سلام عليك اما بعد فاني قد اشركت في الأمر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض (ولكن قريشا قوما يعتدون) فقدم عليه رسولان له بهذا الكتاب ، قال ابن اسحاق "فحدثني شيخ من اشجع عن سلمة بن نعيم بن مسعود الاشجعي عن ابيه نعيم قال : سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول لهما حين قرأ الكتاب: فما تقولان انتما ؟ قالا نقول كما قال ، فقال : اما والله لولا ان الرسل لاتقتل لضربت أعناقكما ، ثم كتب الي مسيلمة " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الي مسيلمة الكذاب : السلام علي من اتبع الهدي أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين " ، وذلك آخر سنة عشر . انظر السيرة النبوية ، مرجع سابق ، ج٤ ، ص١٨١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، مرجع سابق ، ج٦ ، ص ص ٣٨٣-٣٨٤ .

(٢) استعرنا مفهومي العاصمة والقاصمة هنا من القاضي ابي بكر العربي اذ عد الجمع لكل مفهوم منهما (العواصم ، القواصم) أساسا لأحد مؤلفاته في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلي الله عليه وسلم انظر مؤلفه العواصم من القواصم حققه وعلق علي حواشيه محب الدين الخطيب ، القاهرة : المطبعة السلفية ، الطبعة الخامسة ، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

تأمر باتخاذ ولاية لأمر المسلمين تجب لها الطاعة ما استقامت واقامت المسلمين معها علي نهج أبدي قوامه طاعة الله وطاعة رسوله كقوله تعالي ﴿ياأيهاالذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الي الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ [1] .

وهكذا واجه المسلمون صعوبة البحث عمن يخلف النبي صلي الله عليه وسلم فيهم، وقد كان لهذه الصعوبة شقان ، أحدهما خاص بغياب اجراءات اختيار مثل هذا الخليفة، والثاني يتعلق بموقع الاختيار ذاته من بين أهل المدينة عاصمة الدولة ، فقد كان هناك المهاجرون وكان هناك الأنصار ولكل فضله وسابقته في الدين وبجوارهما كانت المدينة تموج بغيرهم ممن دخلوا طواعية في الاسلام فمن أي جماعة يختار المسلمون ؟ بل من أي بطن في هذه الجماعة لو اجتمع أمرهم علي احدي هذه الجماعات ؟ وقد ازداد الحرج علي المسلمين لأنهم واجهوا الاختيار بلا سابقة اسلامية ، كما واجهوه بلا منهج محدد المعالم بين السبل ، وكل ذلك تم في غيبة أية آثار قاطعة توحي بأن الرسول صلي الله عليه وسلم قد حسم أمر الخلافة بعده ، أو الزم المسلمين باختيار شخص بعينه ، وإلا ما وقع المسلمون في عناء البحث عمن يخلفه . من هنا كان توقع اختلاف الرؤي وتنازع الحجج بعده أمراً له ما يبرره ، وقد كان اجتماع السقيفة منتدي عاما تبارت فيه أطراف المهاجرين والانصار ، حين استعرض كل فريق ما لديه من أسانيد وبينات في الادعاء بأحقية الخلافة، مدعما ما ادعاه من سابقته في الدين وأقوال للنبي صلي الله عليه وسلم وممارسات استشف كل فريق منهم أنه المعني من خلالها بالخلافة وظل الحوار آخذا مجراه سجالا بينهم ما بين رؤية المهاجرين في أنهم الأحدر بالخلافة لأن منهم قريشا والرسول صلي الله عليه وسلم أخبر أن الأمراء من قريش [2] وهم أول السابقين هجرة في الاسلام ومن ثم فهم للامارة أهلها ، كما أن الأنصار للوزارة أهلاً ، ورؤية الأنصار في أن لهم سبقا في الايواء والنصرة ، والرسول صلي الله عليه وسلم لم يحدد من هي قريش المعنية بحديثه علي معني انه لم يحدد أي بطون قريش هذه ثم

---

(١) سورة النساء / الآية رقم ٥٩

(٢) في رواية البخاري عن معاوية قال " لما بعد فانه قد بلغني ان رجالا منكم يحدثون احاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله صلي الله عليه وسلم وأولئك جهالكم فاياكم والاماني التي تضل اهلها فاني سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول ان هذا الأمر في قريش لايعاديهم احد إلا كبه الله في النار علي وجهه ما اقاموا الدين " . وروي أيضا عن ابن عمر قال : "قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : لاتزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان ". انظر التعليق علي الحديثين في : ابن حجر ، مرجع سابق ، طبعة الريان ، ج١٣ ، ص ص ١٢٢-١٢٨. وفي رواية مسلم عن ابي هريرة "عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فذكر أحاديث منها : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم " . وروي عن جابر بن عبد الله انه كان يقول " قال النبي صلي الله عليه وسلم الناس تبع لقريش في الخير والشر" . انظر روايات أخري في صحيح مسلم بشرح النووي ، مرجع سابق ، ج١٢ ، ص١٩٩-٢٠٣.

ظهر منهم من نادي بامكان اقتسام الخلافة فيكون من كل فريق امير لأن الرسول صلي ا لله عليه وسلم كان حين يكلف احد المهاجرين بواجب ما يقرن معه احد الانصار وهكذا بين الحجة ونقيضها ظل الأمر متداولا بينهم حتي بدت نذر الفتنة تطل برأسها وأوشك خطر القاصمة يستفحل لولا أن فرغ المجتمعون في سقيفة بني ساعدة من خلافاتهم باجتماع أغلبهم علي ابي بكر (رضي ا لله عنه) ليكون خليفة النبي صلي ا لله عليه وسلم في قيادة المسلمين ، وقد تمخض اختياره عن عدة حقائق أبرزها تركز الاختلاف في أمر الخلافة بين المهاجرين والانصار حول بيت هذه الخلافة واستمرارية اعتراف الجماعة السياسية بضرورة السلطة ورفض التعدد القيادي في تسيير امور الدولة ومرحلية البيعة بين بيعة الخاصة الذين اجتمعت لهم ولاية الحل والعقد في السقيفة، وبيعة العامة من جمهور المسلمين الذين بايعوا من تمت له بيعة الخاصة أو بيعة الانعقاد وعدم وجود الاستخلاف بالتسمية أو الوصاية بالعهد لأحد من المسلمين قبل اختيار ابي بكر ، ومبايعة الأنصار لمن اختاره المهاجرون رغم ما قيل عن تخلف زعيمهم سعد بن عبادة ، وقد تم بسط هذه الحقائق بتفاصيلها ومصادرها المرجعية في موضع آخر من رسالة الباحث للماجستير[1]

المطلب الثاني : قاصمة الارتداد الجماعي وعاصمة اعادة الهيبة للدعوة والدولة :

فكأنما كان المسلمون علي موعد مع قاصمة أخري غير تلك التي عصموا منها باختيار خليفتهم الأول اذ سرعان ما انتشر خبر الردة في أرجاء من المدينة وجاءت النذر من حولها توحي بأن داءها استشري في كل مكان ، يقول ابن الأثير شارحا حجم هذه الفتنة "لما مات النبي صلي ا لله عليه وسلم وسير أبو بكر جيش اسامة ارتدت العرب ، وتضرمت الارض نارا وارتدت كل قبيلة خاصة أو عامة إلا قريشا وثقيفا ، واستغلظ أمر مسيلمة وطليحة واجتمع على طليحة عوام طيىء وأسد ، وارتدت غطفان تبعا لعيينة بن حصن فأنه قال: نبي من الحليفين -يعني اسدا وغطفان - أحب الينا من نبي من قريش وقد مات محمد وطليحة حي فاتبعه وتبعته غطفان ، وقدمت رسل النبي صلي ا لله عليه وسلم من اليمامة واسد وغيرهما وقد مات فدفعوا كتبهم لأبي بكر واخبروه الخبر عن مسيلمة وطليحة فقال لاتبرحوا حتي تجيء رسل امرائكم وغيرهم بأدهي مما وصفتم فكان كذلك . وقدمت كتب امراء النبي صلي ا لله عليه وسلم من كل مكان بانتفاض العرب عامة وخاصة وتسلطهم علي المسلمين "[2] . وهكذا انفرط عقد القبائل التي

---

(١) انظر مصطفي منجود ، الفتنة الكبري والعلاقة بين القوي السياسية في صدر الاسلام ، مرجع سابق ، ص ص ٥٥-٠٦٨

(٢) انظر ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢٠٥ . ويصف ابن اسحاق حال المسلمين وفتنتهم بعد وفاة النبي صلي ا لله عليه وسلم فيقول "ولما توفي النبي صلي ا لله عليه وسلم عظمت مصيبة المسلمين فكانت عائشة فيما بلغني تقول لما توفي رسول لله صلي ا لله عليه وسلم لرتد العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم صلي ا لله عليه وسلم حتي جمعهم ا لله علي ابي بكر" . انظر : ابن هشام ، مرجع سابق، ج٤ ، ص٢٣٦ . أما عن اهم القبائل التي ارتدت فيذكر ابن كثير عن ابن اسحاق "ارتدت العرب عند وفاة النبي ما خلا أهل

أبدت انقيادا وطاعة للنبي صلي الله عليه وسلم دفعة واحدة فاذا بها ترتد علي أعقابها ليميز الله الثابت منها علي دينه من المتقلب ، والمقبل عليه عن ايمان حقيقي من المدبر عنه عن ايمان ظاهري لاجوهر له . وأيا كانت الملامح العامة لحركة الردة من التعدد في الأشكال ما بين ادعاء النبوة الكاذبة ، ودعوي التفرقة بين فرائض الاسلام وفريضة الزكاة وبقاء الاسلام وان اسقطت الزكاة عنه والسعي الي انكار جميع فروض الدين وتشريعاته والكفر بها وجماعية الخروج وشموله أكثر من قبيلة علي نحو ما روي ابن الأثير وابن كثير وغيرهما والتوافق الزمني في الارتداد حيث سرت مفاسده بين القبائل كما تسري النار في الهشيم ، ولامركزية الارتداد حيث انتشاره في أكثر من موقع خارج عاصمة الدولة فان هذه الملامح توحي ببعض الدلالات السياسية المهمة لحركة الردة . وقد اثبتنا في موضع آخر ست دلالات منها وهي عدم تمكن الاسلام من قلوب كثير من أفراد القبائل العربية التي اعلنت ولاءها للاسلام ، وان الروح القبلية التي جاء الاسلام ليستأصل جذورها من العلاقات والمعاملات والعبادات لم يقض عليها تماما عقب اعلان كثير من القبائل اسلامها ، وان وقع الهزة التي احدثها الاسلام لتقويم معوج القيم الجاهلية وسقيمها كان عنيفا علي بعض من تظاهروا بالاسلام و لم يكن قبولهم له إلا من قبيل مجاراة الواقع تحينا لفرصة اعادة ما أخذه الاسلام ، وان رفض العربي -رجل البادية- الخضوع لأي سلطان أو توجيه يأتيه من أعلى كان أحد مصادر رفض السلطان الرئاسي لعاصمة الدولة ، وان الوفود التي جاءت لتعلن اسلامها نيابة عن أقوامها امام النبي صلي الله عليه وسلم لم تتفهم في معظمها حقيقة الاسلام أو لم تنقلها بالمنهج السليم ، وأن مجيء الردة بكل ملامحها كان امتحانا ممحصا للمجتمع السياسي المسلم في أكثر من ميدان [1] . ويهمنا ان نضيف الي هذه الدلالات ست دلالات - اخري لتكون الحصيلة اثنتي عشرة دلالة - هي :

١ - أن الأسود العنسي كان رائد أول ردة في الاسلام [2] بعد أن ادعي النبوة لما علم بمرض الرسول صلي الله عليه وسلم عقب عودته من حجة الوداع غير مرض موته ويبدو أن شره استشري في الأرض حتي ضم اليه نواحي كثيرة في اليمن وخارجها كما أن أمر افساده قد استفحل لدرجة أن وجدنا مؤرخا كبيرا مثل ابن الأثير يقول عنه "واستطار أمره كالحريق" غير أن الرسول صلي الله عليه وسلم أرسل كتبه الي من باليمن من المسلمين يأمرهم بقتله فمازال المسلمون يعملون فيه الحيل حتي قتل وكان قدوم البشير بخبر قتله بعد وفاة النبي صلي الله عليه

المسجدين ، مكة والمدينة،وارتدت اسد وغطفان وعليهم طليحة بن خويلد الاسدي الكاهن ، وارتدت كندة ومن يليها وعليهم الأشعث بن قيس الكندى ، وارتدت مذحج ومن يليها وعليهم الاسود بن كعب العنسي الكاهن وارتدت ربيعة مع المغرور بن النعمان بن المنذر ، وكانت حنيفة مقيمة علي امرها مع مسيلمة بن حبيب الكذاب ، وارتد سليم مع الفجاءة واسمه اثنس بن عبد ليل ، وارتدت بنو تميم مع سجاح الكاهنة" . انظر البداية والنهاية، مرجع سابق ، ج٦ ، ص٣٥٢.

(١) انظر التفاصيل والمصادر في : مصطفي منحود ، الأبعاد السياسية للأمن ، مرجع سابق ، ص ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٢) انظر : ابن الثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢٠١.

وسلم أول بشارة أتت ابا بكر وهو بالمدينة [1] وإعلاما مسبقا له - قبل ولاية السلطة كخليفة أول للمسلمين - ان محاولة الخروج علي المحتوي العقيدي للجماعة السياسية يجب ان تقابل بصور الحسم كافة حتي لو اقتضي هذا الحسم تصفية الخارجين جسديا ما لم يكن ثمةخيار آخر غير ذلك.

٢ - رغم ظهور بوادر الارتداد بعد تصفية الأسود مع مسيلمة الكذاب وطليحة بن خويلد الأسدي وتحرك النبي صلي الله عليه وسلم للضرب بشدة علي أيدي هؤلاء الخارجين إلا أن عدم استكمال هذا التحرك بقدر ما وجد فيه بقية قادة القبائل الأخري الفرصة لانتهاج نهج مسيلمة وطلحة في الارتداد بقدر ما ألقي التبعة علي المسلمين في البناء علي التجربة النبوية السابقة -في التعامل مع الأسود العنسي- والانطلاق منها في استنباط القواعد الشرعية العامة التي وظفها الرسول صلي الله عليه وسلم في تصفية ردته لتطبيقها علي أمثاله فرادي وجماعات .

٣ - أن متابعة القبائل لرؤوسائها وقادتها في التحول من الايمان الي نقيضه يوضح مبلغ سلطان هذه الزعامات وقدرتها علي التأثير فيمن كانوا تحت أيديهم من اتباع مستغلين في ذلك خصائص النظام القبلي في احترام السادة والنزول عند مشورتهم . لقد كانوا بحق علي دين زعاماتهم فلما مالت الزعامات عن الحق مالوا دون تبين لصلاح أو فساد ما أقدموا عليه ويبدو أن سبق القيادات في الارتداد كان من ضمن ما ورائه اثر الهزة العنيفة التي قوضت سلطانهم ومفاسد القيم التي كانول يقدسونها من علو وتكبر قبل الاسلام وهو أمر طالما اظهروا استنكاره ولو أدي الي الانخلاع من الاسلام وتكرر حدوثه حتي بعد قمع فتنة الردة في خلافة أبي بكر وما أمر جبلة بن الأيهم ملك غسان ببعيد لما ارتد نصرانيا في خلافة عمر حين علم أن الاسلام يسوى في القصاص بين المسلمين دون تفرقة بين كبير وصغير سواء وقع الحق علي احدهما أو له [2] .

٤ - لم يجد قادة الفتن من باب يدخلون منه علي القبائل التي شجعوها علي الارتداد سوي باب الدين فقابلوا حقائقه بأباطيلهم وزينوا للناس الأكاذيب لتبدو وكأنها من الدين ، ذلك أنهم كانوا يعلمون أن بابا آخر غير الدين لن يسهل لهم الدخول منه لأن ما أرادوه من اقوامهم كان متعلقا بجوهر الدين الحق ذاته ومن ثم كان الطعن في هذا الدين بتلبيس الأحكام وانتحال الباطل وفساد التأويل هو أنسب السبل لصرف الناس عما ارادهم الاسلام ، ولذلك تعددت أساليب

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٠٤ .

(٢) روي ابن سعد " كتب رسول الله صلي الله عليه وسلم الي جبلة بن الأيهم ملك غسان يدعوه الي الاسلام ، فاسلم وكتب باسلامه الي رسول الله صلي الله عليه وسلم واهدي له هدية و لم يزل مسلما حتي كان في زمان عمر بن الخطاب فبينما هو في سوق دمشق اذ وطيء رجلا من مزينة ، فوثب المزني فلطمه ، فاخذه وانطلق به الي ابي عبيدة بن الجراح فقالوا هذا لطم جبلة ، قال: فليلطمه ، قالوا: وما يقتل ؟ قال :لا ، قالوا فما تقطع يده ؟ قال : لا ، انما أمر الله تبارك وتعالي بالقود ، قال جبلة : أو ترون اني جاعل وجهي ندا لوجه حدثي جاء من عمق ، يمس الدين هذا ثم ارتد نصرانيا ، وترحل بقومه حتي دخل ارض الروم ، فبلغ ذلك عمر فشق عليه" . انظر الطبقات الكبري ، مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٠٣.

مدعي النبوة من المرتدين ، فطليحة كان يزعم أن جبريل يأتيه بالوحي وكان يأمر اتباعه بترك السجود في الصلاة [1] ، أما مسيلمة فكان يرجز فاسد القول ويبتدع مالا معني له ويقول عنه افتراء وكذباً انه وحي ، ناهيك عما ارتكبه من فاحشة مع سجاح المتنبئة ليخرج بعدها معلنا للناس ان ا لله – تعالي عما يقول علوا كبيرا– قد أوحي اليه بذلك [2] وقد ثبت لهؤلاء المفسدين انهم قد وفقوا في اختيار الباب الذي دخلوا منه للافساد رغم علم اقوامهم بكذبهم لما قام أحد اتباعهم لأحد مدعي النبوة "اشهدانك كاذب وان محمدا صادق ولكن كذاب ربيعة – يعني مسيلمة الكذاب – احب الينا من صادق مضر " [3] يقصد النبي صلي ا لله عليه وسلم.

٥ – كما ان سرعة استجابة القبائل لدعوي الارتداد التي سري داؤها خارج المدينة واستسلامها لدعاة الارتداد يؤكد أمرين ، أولهما أن هذه القبائل كانت تقلد بعضها بعضا في نهج الارتداد لذلك كانت بعض القبائل تنتظر سبق بعضها الآخر الي الردة لتنظر مآلها عقب الارتداد ومسلك الجماعة المؤمنة معها وكذلك فعلت بنو عامر التي كانت – وفق تعبير ابن الأثير – تقدم رجلا الي الردة وتؤخر أخري ، وتنظر ما تصنع أسد وغطفان . الي أن يقول "واقبلت بنو عامر بعد هزيمة بنو بزاخة يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله واتوا خالدا – أي ابن الوليد – فبايعهم علي ما بايع أهل بزاخة ، وأعطوه بأيديهم علي الاسلام " [4] والأمر الثاني ان الطواعية أو الارادية التي حدت بالقبائل الي الدخول في الاسلام هي نفسها التي ساقتها الي الخروج منه ويبدو أن هذه الطواعية ساعدت القادة الذين لم تفتنهم دعوي الارتداد – خاصة في بعض القبائل التي لم يظهر فيها أى مدع للنبوة– علي اقناع قبائلهم بفساد منطق الردة وقد روي دليلا علي ذلك ماأورده ابن الأثير أن "الجارود بن المعلي العبدي جمع عبد القيس علي الايمان بعد ردتهم فاسلموا وثبتوا علي اسلامهم " [5] .

٦ – واخيرا يستوقف الناظر في احداث الردة قيادة النساء لبعض القبائل ليس في اعلان الارتداد فقط بل وفي دخول الحرب ضد المسلمين الذين انهضهم الخليفة الأول لقمع الردة ، فسجاح التميمية التي تنبأت – أي ادعت النبوة – وصدقها قومها من تميم لم تكن الأولي [6] ،

---

(١) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٢ ،ص٢٠٦ .

(٢) انظر : المرجع السابق ،ج٢ ، ص ص ٢١٣-٢١٦ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٢، ص ص ٤٩٦-٥٠٠ ؛ ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٦ ، ص ص ٣٦٠-٣٦٢.

(٣) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢٢٠.

(٤) انظر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢١٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٤٩٠؛ ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٦ ، ص٣٥٨.

(٥) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢٢٥.

(٦) انظر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ص ٢١٣-٢١٦ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٤٩٦-٥٠٠ ؛ ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٦، ص ص٣٦٠-٣٦٢ .

فهناك أيضا سلمي بنت مالك بن حذيفة التي جمعت حولها فلول غطفان وطيىء وسليم وقادتهم في قتال جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد ، وحرضتهم علي النزال وهي واقفة علي جمل الي ان قتلت وقتل حول جملها مائة رجل [1] ، ولكن يبقي التساؤل عن أسباب هذه الظاهرة الاستثنائية في قيادة المرتدين . هل هو ما بلغته النساء من مكانة في أقوامهن [2] أم هو العجز في قيادة الرجال أم هي الثارات القديمة المبيتة ضد المسلمين . كالذي روي عن سبي سلمي بنت مالك التى لما اعتقتها أم المؤمنين عائشة رجعت الي قومها وارتدت [3] ، أم هي الوعود التي بذلت فيما لو نجحت الردة كقول سجاح لما ارسلت توادع مالك بن نويرة "ان كان ملك فهو لكم"[4]، أم هي الفتنة العامة التي سقطت فيها النساء كما سقط فيها قبلهن وبعدهن الرجال ؟ .

وعموما كانت العاصمة من هذه الفتنة الارتدادية فى تحرك الخليفة الأول بتحريك عدة جيوش قضت علي رؤوسهم واتباعهم كقول ابن مسعود "فوالله ما رضي أبو بكر منهم -أي المرتدين - إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية ، فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم في النار ومن قتل منا في الجنة وان يدوا قتلانا ونغنم ما اخذنا منهم وأن ما أخذوا منا مردود علينا ، وأما الحرب المجلية فان يخرجوامن ديارهم " [5] .

---

(١) انظر الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٤٩١-٤٩٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢١١ ؛ ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٦ ، ص٣٦٠ .

(٢) كتلك التي كانت تدعي "أم زمل" وهي من سيدات العرب ، وكانت كأمها يضرب بها المثل في الشرف لكثرة اولادها وعزة قبيلتها وبيتها وقد اجتمع لها طائفة كثيرة من الفلال يوم بزاخة من اصحاب طليحة ، ومن بني غطفان فدفعتهم علي قتال خالد بن الوليد يقول ابن كثير "فلما اجتمعوا اليها امرتهم لقتال خالد فهاجوا لذلك وناشب اليهم آخرون من بني سليم وطيء وهوازن واسد , فصاروا جيشا كثيفا وتفحل أمر هذ المرأة فلما سمع بهم خالد بن الوليد سار اليهم واقتتلوا قتالا شديدا وهي راكبة علي جمل أمها الذي كان يقال له : من يمس جملها فله مائة من الأبل وذلك لعزها فهزمهم خالد وعقر جملها وقتلها وبعث بالفتح الي الصديق " . انظر ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٦ ، ص٣٦٠ .

(٣) انظر : الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص٤٩١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢١١

(٤) انظر الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٤٩٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢١٤ .

(٥) انظر : ابن الأثير ، الكامل , مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢٠٥ . وانظر في سياسة الخليفة الأول في التصدي لحركة الردة وكيفية تحريك جيوشه لذلك ، ومعاركها وقادتها وما انتهت اليه في المرجع السابق ، ج٢ ، ص ص٢٠٥-٢٣٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٤٧٥-٥٥٠ ؛ ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٦ ، ص ص ٣٥٠-٣٨٥ . وانظر ايضا : مصطفي منجود، الأبعاد السياسية للامن . مرجع سابق . ص ص ٢٤٧ - ٢٥٨ ؛ عبد المتعال الصعيدي ، القضايا الكبري في الاسلام ، القاهرة : مكتبة الآداب ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٠ ، ص ص ٩٢ - ٩٥ ؛ الامام محمد أبو زهرة ، الوحدة الاسلامية، القاهرة : دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م ، ص ص ١١٦-١١٨ ؛ د محمد سليم العوا ، مرجع سابق ، ص ص ٨٢-٨٣ ؛ د. منظور الدين احمد ، مرجع سابق ، ص ص١٧٠-١٧٣ .

المطلب الثالث : قاصمة الاعتداء علي مركز الدولة وعاصمة رده وتصفيته :

وذلك قبل أن يتخذ الخليفة الأول قراره بتحريك الجيوش للتعامل مع المرتدين فقد توقع ان يغير المرتدون علي المدينة ، لما رفض ما اقترحه رسلهم الي المدينة من التفريق بين الصلاة والزكاة وأعلمهم أنهم لو منعوه شيئا صغيرا أو كبيرا كانوا يؤدونه للرسول صلي الله عليه وسلم لجاهدهم عليه مهما كان حجم تضحياته ، ولذلك أعد للأمر عدته فجعل على أنقاب العاصمة نفرا من الصحابة ، والزم اهل المدينة حضور المسجد خوف الغارة من العدو لقربهم منه ، فما لبثوا إلا ثلاثة أيام حتي طرقوا المدينة غارة من الليل فتصدي لهم المسلمون ، وخرج اليهم الخليفة بنفسه وأهل المسجد بموضع يقال له ذو حسي وابقي النقباء في مواضعهم وظل يتبعهم حتي تقابل مع المرتدين في موقعة دامية فهزمهم وطاردهم حتي موضع آخر يسمي بذي القصة ، فلما وثبت بعض القبائل من بني عيسي وذبيان ومن تبعهم ومن وراءهم في هذا الصنيع أصر الخليفة علي قتالهم بنفسه ، فسار اليهم حتي نزل بمكان يدعي بالابرق فقاتل من به حتي هزم المشركون من بني عبس وبني بكر وذبيان وغلبوا علي بلادهم فحماها الخليفة لدواب المسلمين وصدقاتهم ، ثم عقد الألوية لمتابعة المرتدين [1] محملا كل لواء برسالتين تتضمن احداهما دعوة اعذار وانذار لفلول المرتدين وجهة ارسال الألوية ، تقيم الحجة عليهم كي يعودوا الي دين التوحيد وتحذرهم مغبة عدم الانتهاء عن ذلك ، والثانية تحوى منهج التزام لايحيد عنه قائد كل لواء يوضح له حدود ما يفعله ومالا يفعله قبل المرتدين سواء قبلوا دعوة الاعذار والانذار أو رفضوها وسواء غلب علي سلوكهم المسالمة وحقن الدماء أو المنابذة واراقتها [2] .

المطلب الرابع:قاصمة الاختلاف علي مواصلة الكفاحية الخارجية وعاصمة الاتفاق عليها :

وذلك ان النبي صلي الله عليه وسلم كان قد استعمل اسامة بن زيد علي جيش للمسلمين ؛ وأمره ان يتوجه الي الشام ويوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم من ارض فلسطين ، بيد أن البعث لم ينفذ لوفاة الرسول صلي الله عليه وسلم وارتداد قبائل العرب ، فاختلف المسلمون بعد اختيار الخليفة الأول في أمر استمرار بعث اسامة من عدمه ، ففريق رأي انه لاينبغي ان تتفرق جماعة المسلمين عن الخليفة بعد تفاقم أحداث الردة وفي البعث مظهر من مظاهر هذا التفرق لأنه نشر لجزء من قوة الدولة خارج حدودها وأولي ان تتكامل عناصر القوة كافة لتصفية أمر الردة علي ان يؤجل بعث اسامة حتي الانتهاء من هذا الواجب الأولي ، أما الخليفة فأبي إلا ان ينفذ البعث

---

(١) انظر التفاصيل في : الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٤٧٦-٤٨٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٢٠٦-٢٠٧ ؛ ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ص ص ٣٥٢ - ٣٤٥ .

(٢) انظر نص هاتين الرسالتين في : ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٦، ص ص ٣٥٦-٣٥٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص٤٨٠-٤٨٢ ؛ أحمد زكى صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ص ١٠٩ - ١١٢ ؛ د. محمد حميد الله ، مرجع سابق، ص ص ٢٥٩ - ٢٦٤ .

ولذلك أمر ان يخرج كل من هو من جيش اسامة الي معسكره بالجرف ، فخرجوا كما ارادهم ، حين أن اسامة بن زيد ارسل عمر بن الخطاب وكان ضمن البعث يستأذن ان يرجع بالناس لأنه لم يكن ليأمن علي خليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين أن يتخطفهم المشركون ، وثمة فريق من الأنصار أراد ان يتولي أمر البعث من هو اقدم سنا من اسامة بن زيد حديث السن في نظرهم فلما رأي الخليفة ان الخرق سيتسع وأن الخلاف سيزداد خطورة رد المخالفين الى رأيه ، بالحجة والبرهان فالذين رأوا تأخير البعث واجههم بان البعث كان قضاء من رسول الله صلي الله عليه وسلم وما ينبغي ان يرد قضاءه ولو لم يبق في القري غيره بل ولو خطفته الكلاب والذئاب، والذين رأوا في اسامة صغر السن، وقلة الخبرة، واجههم بأن الرسول استعمله علي سنه التي هو عليها ، ولو كان سنه حائلا دون ولايته ما ولاه أمر البعث فما ينبغي له كذلك ان يعزله وقد وجد فيه النبي صلي الله عليه وسلم صلاحا لما كلفه .

وهكذا لم يزل الخليفة يرد الحجة بمثلها حتي اجتمعت الكلمة وعصمت وحدة الجماعة علي رأي الخليفة فتوجه اسامة بن زيد الي وجهته وعاد ظافرا بعد اربعين يوما وكان في انفاذ جيشه فيما يقول ابن الأثير "اعظم الأمور نفعا للمسلمين فان العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة لما ارسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون ان يفعلوه " [1] .

وهكذا قدر للقيادة السياسية الثانية في خبرة المجتمع الاسلامي ان تتحمل مهام مسؤليات ثلاث في آن واحد ، مهمة الحفاظ علي قوة الدفع التي سرت في اوصال الدولة منذ أرست القيادة الأولي – قيادة النبوة – أسسها لتفيض علي المسلمين وغيرهم بما تعد به دعوة الاسلام من الارتقاء بالانسان ومجتمعه ، ومهمة انتشال الجماعة المسلمة مما أصابها وهز كيانها من جراء انتهاء الوحي رسولا ورسالة بعد ان عهد النبي صلي الله عليه وسلم بما أنزل عليه منه الي صحابته من بعده ، واستحفظهم عليه قرآنا وسنة ، ومهمة ان لايدع فرصة لمغرض أو نهاز للفرص من داخل الدولة أو من خارجها كي يؤجج نار الفتنة والانقسام بين صفوف المسلمين ، ان بالطعن في مصداقية استمرار الوحي بينهم أو بالتشكيك في قدرتهم في التغلب علي مشكلة القيادة وقد استطاع الخليفة الأول أبو بكر ان يتصدي لهذه المهام وما تفرع منها ليمهد السبيل لمن بعده كي ينقل الدعوة بالدولة والدولة بالدعوة الي طور جديد [2] .

---

(١) انظر : ابن كثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢٠٠ ؛ وانظر أيضا : الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٢، ص ص ٤٦١ – ٤٦٣ ؛ ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٦ ، ص ص٣٤٣ – ٣٤٥ ؛ ابن العربي ، العواصم من القواصم ، مرجع سابق ، ص ص ٤٥-٤٦ .

(٢) انظر من المصادر الاجنبية التي تعرضت لتطور الدولة وتحدياتها في خلافة ابي بكر الصديق :

- Khuda Bukhsh , Politics in Islam , Lahore , Kashmir : Ashraf Press,1961 , pp 13-36 ; Francesco Gabrieli , op.cit, pp 90-93 ; Hugh Kenedy The Arabs in History , London :

المبحث الثالث : التطور الثالث : اتساع نطاق حركة الدولة خارجيا ومواجهة تحدياته :

فرغم شدة القواصم في عصر الخليفة الأول ورغم ان التطور السياسي بعد انقضاء عصر النبوة قد فرض عليه أن يتجه الي داخل الدولة ليعيد ترتيب أوضاعه بتطهير أركانه من شوائب الارتداد ، والخروج شبه الجماعي للقبائل العربية علي السلطان المركزي للخلافة إلا انه أبي أن يشغله هذا الذي فرض عليه عن تطوير نطاق الدولة ودعوتها ، ولو أنه لم يكن له من عمل غير اخماد نيران هذه الفتنة لكفاه ، ذلك أن ضبط أمور الدولة واعادة انتظامها علي جادة الالتزام الديني مناط شرعيتها والدفاع عن المقاصد العليا التي ارست قيادة النبوة قواعدها والاطاحة بقيادات الفتنة التي اطلت برؤوسها لتنازع المكانة الحضارية لعاصمة الدولة ، هذه الخطوات كانت بمثابة الأرض الصلبة التي وقف عليها الخليفة الثاني لينقل الدولة من طور حدود المدينة -الدولة - الي طور الدولة مترامية المدن والأطراف . بيد أن الخليفة الأول أراد أن يكمل ما انجزه من وأد للردة بثلاثة أعمال أخري لاتقل في آثارها الايجابية عن آثار نهجه مع المرتدين أحدهما كانت له دلالته في مواصلة تجميع شمل الجماعة السياسية وذلك لما أمر بجمع القرآن الكريم حفاظا علي مصدر الأحكام والتشريعات من ان تصيبه هلكة أو يلحق به تضييع ، خاصة وان كثيرا من حفظته كانوا قد استشهدوا في قتال المرتدين، والثاني كانت له دلالاته في اثبات أن بعث اسامة بن زيد الي تخوم الروم لم يكن سوي مقدمة تلتها مقدمات أخري نحو تطوير فيضان الدولة ومد سلطان دعوتها خارج حدود المدينة النبوية بسلسلة من الفتوحات الخارجية ، وكأن الخليفة أراد بذلك ان يثبت من ناحية أن المدي الذي وصل اليه وهن الدولة مع الردة كأن لم يكن ، وإلا ما انتشرت جيوشه خارج المدينة ، ولانكفأت علي الداخل لتخلص الدولة من هذا الداء ، وان يلزم من بعده من ناحية أخري بضرورة أن يستكمل ما بدأه من جهد في بسط دعوة الاسلام ونشرها الي الأمم والدول التي لم تعهدها مهما كان خطر الخطوب الداخلية . والثالث كانت له دلالاته في كفاية المسلمين هم اختيار من يخلفه كي يتفرغوا لمواصلة ما بدأه من تطوير للدولة ، ومواجهة ما قد يصاحبه من تحديات لم يعهدوها من قبل. لا معه ولا مع النبي صلي الله عليه وسلم [1] . لقد كان ماثلا في ذهن الخليفة - وقد اقدم علي هذا العمل الأخير - ما جري في احداث السقيفة قبل

Hutchison University Press , 1968, pp 5-10 ; Fred Mcgrow Ponner , The Early Islamic Conquests, New York: Princeton University Press, 1981 , pp 82-97 ; Akram Raslan, op.cit , pp 112 -117 .

(١) انظر تفاصيل عملية جمع القرآن في خلافة ابي بكر الصديق ومقاصدها السياسية بتفصيل في : مصطفي منجود ، الأبعاد السياسية للأمن في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ص ٤٨٦ - ٤٩٩ .

وانظر تفاصيل فتوح البلدان في خلافة الخليفة الأول في الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٢، ص ص ٥٥١-٦١٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ٢٣٨-٢٦٦ ؛ ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٦ ، ص ص ٣٨٥-٣٩٧ ،ج٧ ، ص ص٣-١٨. وانظر في استخلافه عمر بن الخطاب وابعاده السياسية في مصطفي منجود ، الفتنة الكبري ، مرجع سابق ، ص ص ٦٩ - ٧٨ .

أن يُعهد اليه بالخلافة ، ويبايع له ، فأثر أن ينتهج نهجا جديدا في اختيار خليفة المسلمين ، كانت محصلته اختيار عمر بن الخطاب ليخلفه فوجد المسلمون معه انفسهم في سعة من أمرهم كي يلتفتوا الي المهمة الاساسية في الفيضان بالدعوة ، بعد أن مهد لهم أبو بكر الصديق الطريق وأزال من أمامهم منغصات الاضطراب الداخلي ، وضرب لهم مثلا في كيفية الجمع بين التصدي لقوة هذه المنغصات الداخلية وتسيير جيوش الفاتحين خارجيا في توازن وتزامن نادري التحقيق من بعده. وقد اثبت التطور السياسي بعد ابي بكر ان اختياره عمر بن الخطاب حمل مصداقية كبيرة ، ان في مناسبته لقيادة الدولة من بعده، أو في جدارته في اعلان راية التوحيد في بقاع كثيرة من أطراف الأرض لم يكن ثمة عهد بينها وبين الاسلام من قبل ، أو في قدرته علي الاستيعاب الفعال للتحديات كافة التي تمخضت عن هذا الاعلاء ، وصهرها لتكون طاقة جديدة تدفع حركة الدولة نحو مزيد من الفتوحات ، ومزيد من الابداع الحضاري وهكذا تبدو ملامح هذا التطور الثالث في الآتي :

المطلب الأول : تجاوز مشكلة اختيار قيادة الدولة :

فكما سبق القول ساعد الخليفة أبو بكر الصديق المسلمين علي تجاوز مشكلة الخلافة من بعده، وسد عليهم أبواب التساؤلات التي تفجرت عقب انقضاء عصر النبوة ، وذلك لما آثر أن يعهد بالخلافة الي عمر بن الخطاب عهد وصاية لاعهد الزام ، أو بعبارة أخري عهد ترشيح للخلافة وليس عهد مبايعة نافذة ، مبني علي رضي المسلمين وقبولهم ، وقد جاء في الكتاب الذي املاه أبو بكر علي عثمان بن عفان نص العهد لعمر بن الخطاب كالتالي : "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر بن ابي قحافة خليفة محمد رسول الله صلي الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا نازحا عنها وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي فيها الفاجر ويصدق الكاذب ، اني استخلف عليكم عمر بن الخطاب فان بر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه ، وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت ولكل امريء ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " [1] .

هذا العهد ، الذي كان فاتحة طريقة جديدة في اسناد السلطة - طريق ولاية العهد - تناولها الفقه الاسلامي بالتحليل والدراسة فيما بعد، أكد عدة حقائق في اختيار عمر بن الخطاب تميزه عن غيره من سبل اسناد السلطة لولاة العهد في النظم الملكية أولاها وجود ضرورة شرعية لمن يعهد اليه أمر السلطة ، والثانية البعد عن توريث السلطة باسنادها الي الاقارب، والثالثة البعد عن الانفراد بالقرار حال العزم علي ولاية العهد ، والرابعة استناد ولاية العهد علي الرضا والقبول من عامة المسلمين ، والخامسة أن الاستخلاف أو ولاية العهد في عصر الخليفة المستخلف -بكسر اللام-

---

(١) انظر نص العهد في : الباقلاني ، مرجع سابق ، ص ٤٣ ؛ احمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، مرجع سابق ، ج١ ، ص١٤٤

لايرادف ولاية السلطة لمن عهد اليه ، والسادسة أن ولاية العهد لاتكون لمن يحرص على السلطة ويسعي اليها، والسابعة استمرار قرشية الخليفة وذلك تم تناوله بتفصيل وتعليق فى موضع آخر [1]

المطلب الثاني : اتساع حركة الفيضان الخارجي :

لو ان باحثا فردا ذهب ليعدد اساليب افاضة الدعوة مع الفاتحين المسلمين فى عصر عمر بن الخطاب أو وجهاتها أو قادتها أو البطولات التي صاحبتها أو التضحيات التي بذلت فيها لما استطاع الى ذلك سبيلا . يكفي أن نعلم أن الاتساع الذي بلغته حركة الفتوحات في خلافة عمر بن الخطاب كان من الضخامة بحيث شمل "فتح العراق كله ، السواد والجبال واذربيجان ، وكور البصرة وأرضها ، وكور الأهواز ، وفارس ، وكور الشام ، ما خلا اجنادين التي فتحت في خلافة ابي بكر ، وكور الجزيرة ، والموصل ، ومصر ، والاسكندرية ، وقتل عمر بن الخطاب وخيله علي الري وقد فتحوا عامتها [2] . ويستوقفنا في هذه الفاعلية الخارجية تأكيد بعض الحقائق :

---

(١) انظر هذه الحقائق بتفصيل ، وسندها من الخبرة السياسية في : مصطفي منجود ، الفتنة الكبري ، مرجع سابق،ص ص٦٩-٧٨ . وانظر الملابسات التي صاحبت ولاية العهد للخليفة الثاني : الطبري، تاريخ الأمم، مرجع سابق .ج٢ ،ص ص ٦١٧-٦٢٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل،مرجع سابق، ج٣ ، ص ص ١٤٨-١٥٠ ؛ الكاندهلوي ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ص ١٣-١٥.

(٢) انظر ابن سعد ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ص ٢١٣-٢١٤ ؛ وفي رواية اخري مفصلة للسيوطي أنه فتح دمشق ، وحمص ، وبعلبك ، والبصرة ، والايلة ، والاردن ، والاهواز ، والمدائن، وتكريت ، وبيت المقدس ، وقنسرين ، وحلب، وانطاكية ، ومنبج ، وسروج ، وقرقيسيا وجند يسابور ، وحلوان ، وقرها ، وسميساطاء ، وحران ، ونصيبين ، وطائفة من الجزيرة ، والموصل ، ونواحيها ، وقيسارية ، ومصر ، والمغرب ، والاسكندرية ، ونهاوند ، وبرقة، وأذربيجان وغيرها ، وكل ذلك في الفترة ما بين سنة اربع عشرة من الهجرة وسنة ثلاث وعشرين منها .

انظر : جلال الدين السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة : المكتبة التجارية الكبري ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٤ ، ص ص١٣١-١٣٢ ، وفي رواية ابن كثير ان " فتح الشام كله ، والجزيرة ، والموصل ، وميافارقين ، وآمد ، وارمينية ، ومصر ، واسكندرية ، ومات وعساكره علي بلاد الري وفتح من الشام : اليرموك ، وبصري ، ودمشق ، والأردن ، وبيسان ، وطبرية ، والجابية ، وفلسطين ، والرملة ، وعسقلان ، وغزة ، والسواحل ، والقدس ، وفتح مصر ، واسكندرية ، وطرابلس الغرب ، وبرقة ، ومن مدن الشام : بعلبك ، وحمص ، وقنسرين ، وحلب ، وانطاكية ، وفتح الجزيرة ، وحران ، والرها ، والرقة ، ونصيبين ، ورأس عين، وشمشاط ، وعين وردة ، وديار بكر ، وديار ربيعة ، وبلاد الموصل ، وأرمينية جميعها ، وبالعراق : القادسية ، والحيرة ، ونهر سيرو ، وساباط، ومدائن كسري ، وركوة الفرات ودجلة والايلة ، والبصرة ، والاهواز ، وفارس ، ونهاوند ، وهمذان ، والري ، وقومس ، وخراسان ، واصطخر ، واصبهان ، والسوس ، ومرو ، ونيسابور ، وجرجان ، واذربيجان وغير ذلك ".

انظر البداية ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص١٤٧ ؛ وانظر ايضا : محمود شاكر ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ص ١٤٣-١٩٠.

أولاها : ان رسائل الرسول صلي ا لله عليه وسلم ومكاتباته الي ملوك الأرض ورؤساء الدول حين نقلت اليهم حرص الاسلام علي ان يدخل فيه الناس طوعا لا كرها فبشرتهم بأخوة الدين والانتظام في نهج قيمه واخلاقه عقيدة وشريعة وأنذرتهم مغبة صم الآذان عنها ، بما في ذلك من سوء العاقبة في ازالة الملك واقتلاع السلطة . هذه الرسائل وتلك المكاتبات لم تكن مجرد دعاوي ابراء ذمة أو معذرة الي ا لله في القيام بدعوة الناس ، لاتلبث ان تنقضي بوفاة الرسول صلي ا لله عليه وسلم بل ظلت - وهي كذلك دائما -وظيفة حضارية للدولة الاسلامية وتبقي مابقي الالتزام بتبليغها - وما بقي من يستطيع القيام بواجباتها ومن ثم فهي التزام دائم علي الأمة الاسلامية - وفق شروط الداعي - حاكما ومحكوما ، وليست التزاما مؤقتا مرتبطا بحياة نبي من الأنبياء ، أو خليفة من الخلفاء بعده ، ذلك ان انتهاء سلطة النبوة أو انتهاء اية سلطة سياسية شرعية تخلفها لايسقط أبدية الالتزام وانما تتواصل هذه الوظيفة ويتوارثها أجيال المسلمين جيلا بعد جيل الي ان يرث ا لله الأرض ومن عليها.

وثانية الحقائق ان الدعوة مع حركة الفتح الاسلامي وجدت من يتابع ابلاغها للناس ، ويحتضن منطق العزة والقوة فيها غير عابيء بسطوة وجهة التبليغ أو سلطانها . وانظر الي ملامح هذا المنطق في بلاغة خالد بن الوليد اذ يقيم الحجة علي باهان امير الروم اعذارا وانذارا قبل ان يدخل معهم في قتال عنيف اطاح بسلطانهم بعد ذلك ، اذ يقول له "ونحن ندعوكم الي ما دعانا اليه نبينا صلي ا لله عليه وسلم والي ما امرنا به ان ندعو اليه الناس فندعوكم الي الاسلام ، والي أن تشهدوا أن لااله إلا ا لله وان محمدا عبده ورسوله ، والي أن تقيموا الصلاة ، وتؤتوا الزكاة ، وتقروا بما جاء من عند ا لله عز وجل ، فان فعلتم فانتم اخواننا في الاسلام لكم مالنا وعليكم ما علينا وان ابيتم فانما نفرض عليكم ان تعطوا الجزية عن يد وانتم صاغرون ، فان فعلتم قبلنا منكم وكففنا عنكم ، وان ابيتم ان تفعلوا فقد وا لله جاءكم قوم هم أحرص علي الموت منكم علي الحياة "[1] .

وبمنطق العزة هذه اتسعت حركة الفتح ليدخل الناس في الاسلام وليري ملوك الأرض آنذاك صدق ما بشرهم النبي صلي اله عليه وسلم حال قبول دعوة التوحيد وصدق ما انذرهم حال رفضهم اياها ومن ثم صدق الرسالة التي أنزلت عليه ليكون بها ﴿شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾[2] .

والحقيقة الثالثة أن العقيدة وليس شيئا آخر قبلها -كانت وهي كذلك دائما ينبغي ان تكون- هي أساس التحرك الخارجي لاعلاء كلمة التوحيد جوهرها ، بعبارة أخري كانت المعاني الجامعة التي يستبطنها مبدأ "الجهاد في سبيل ا لله" هي الدافع القوي لدخول المسلمين في علاقات السلم أو الحرب أو الهدنة مع غيرهم و لم يكن طمع الحصول علي مكسب أو ثراء من الغنائم أو الفيء أو

---

(١) انظر احمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، مرجع سابق ، ج١، ص ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٢) سورة الاحزاب /الآية رقم ٤٥.

السلب أو ماعدا ذلك من ثمرات مادية للجهاد [1] ، وما كان مسلكهم هذا إلا بروزا عند الأمر الإلهي ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم﴾ [2] وعند الأمر النبوي "اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله " [3] ، ولم يزل الخلفاء الراشدون بعد النبي صلي الله عليه وسلم يلتمسون خطي هذا الهدي فجاء أبو بكر ليودع بعض جيوشه ، وهو يقول "اندفعوا باسم الله [4] يتبعه عمر بن الخطاب علي هذا النهج بقوله "بسم الله وبالله وعلي عون الله امضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله، ولزوم العدد والصبر فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله " [5] .

ورغم ذلك لايمكن القول ان المكاسب المادية من وراء الجهاد لم تحرك نفوس فريق من المسلمين . ولاضير من ذلك اذ ان احدي الحسنيين التي وعدهم الله بها بفعل الجهاد ، وهي النصر لاتقف في معناها عند حد هزيمة العدو ، أو تصفيته جسديا ، وانما تشمل كذلك أوجه النصر كافة من وراثة الأرض ، والديار والأموال وهو ماتحدث عنه القرآن الكريم اذ بين حال المسلمين مع النصر عقب غزوة الأحزاب ﴿واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وارضا لم تطأووها﴾ [6] ، كذلك لاتثريب علي هؤلاء النفر ، وقد علموا ان الخيط دقيق في أعمال الجهاد بين اخلاص النية لله واخلاص النية للرياء أيا كانت صوره ، ومنها بالقطع بغية المنافع المادية فحرصوا علي عدم خرق هذا الخيط أو قطعه خاصة ان النبي صلي الله عليه وسلم قد اسقط لهم من ميزان الأعمال الصالحة كل قتال لايبتغي فيه وجه الله وحده ، وعرفهم أن "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " [7] .

والحقيقة الرابعة : ان حركة الفتح – وانطلاقا من النقطة السابقة – لم تكن حركة استطالة وبغي علي الناس حيث الافساد والخراب بل كانت حركة اعمارية بالمفهوم الاسلامي ، بعبارة

---

(١) هذه الاقسام من الأموال مبسوط الحديث فيها في أبواب الفقه المختلفة . أنظر رؤية سياسية لها ولموقعها من نظرية الجهاد في الاسلام أوردها : عبد العزيز صقر ، نظرية الجهاد في الاسلام ، حول تأصيل المفاهيم والمقومات الاساسية في التقاليد الأولي، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، كلية الاقتصاد –جامعة القاهرة ، ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م ، ص ص ٢٠٤–٢٧٥.

(٢) سورة الحج / الآية رقم ٧٨.

(٣) رواه مسلم عن سليمان بن بريدة عن ابيه .انظر صحيح مسلم بشرح النووي ، مرجع سابق ، ج١٢ ، ص٣٧.

(٤) انظر : أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، مرجع سابق ، ج١ ، ص١٨٧.

(٥) انظر : المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٢٧ .

(٦) سورة الاحزاب /الآية رقم ٢٧ .

(٧) واصل الحديث الذي رواه البخاري عن ابي موسي قال "جاء رجل الي النبي صلي الله عليه وسلم ,فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليري مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله."

انظر : ابن حجر ، مرجع سابق ، طبعة الريان ، ج٦ ، ص ص ٣٥–٣٦.

أخري انها كانت انطلاقة لاعمار الوجهات التي ولي الفاتحون المسلمون وجوهم شطرها ، اعمار النظم والمؤسسات والسلطات والنفوس والاراضي والاموال والقيم والاخلاق بما يصلحها وينميها لتكون علي صراط الله المستقيم والدين القيم الذي كان هؤلاء الفاتحون يدعون اليه ولذلك دانت لهم الدول والشعوب ، وقد توافرت لهم شروط وراثة الأرض بفعل حركة الفتح [1] المتضمنة في قوله تعالي ﴿ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ [2] ، ولهذا عندما يأتي القائد الاسلامي ربعي بن عامر ليقول لرستم قائد الفرس " الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الي عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الي سعتها ، ومن جور الأديان الي عدل الاسلام " [3] فانه ينفى ان تكون حركة الفتح الاسلامي مبررا لممارسة أعمال الاضطهاد الديني ، أو نهب الثروات ، أو ابادة الشعوب ، أو استغلالها واسترقاقها ، أو فرض نظم مستبدة عليها، أو طمس معالم تراثها وحضارتها، أو تغيير هويتها ، أو ضرب اقلياتها وطوائفها بعضها ببعض ، أو تكريس اخضاعها وتبعيتها ، أو ما شاكل ذلك مما قاست منه دول وشعوب وعانت من حركة الاستعمار التقليدي الغربي [4] بصرف النظر عن الدول التي قادت روافد هذه الحركة ، أو تلك التي ذاقت مرارتها وويلاتها [5] .

---

(١) انظر في حقيقة الوجه الحضاري الاصلاحي لحركة الفتح الاسلامي : د فتحي الدريني ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠٨-٢١٢ ؛ د. عماد الدين خليل ، حول انتشار الاسلام - وقائع وملاحظات ، المملكة العربية السعودية : جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، سلسلة ينابيع الثقافة العدد رقم ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م ، مواضع متفرقة ؛ منير شفيق : الاسلام في معركة الحضارة، مرجع سابق ، ص ص ١٢٩-١٣٢.

(٢) سورة الأعراف /الآية رقم ١٢٨.

(٣) انظر الطبري ، تاريخ الامم ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص٣٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق، ج٢ ، ص٣١١ ؛ احمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٤٢.

(٤) انظر في نظرية الاستعمار (البغي) التقليدي : د.حورية توفيق مجاهد ، الاستعمار كظاهرة عالمية. القاهرة : عالم الكتب ١٩٨٥؛ وانظر في ظاهرة الاستعمار الجديد : ماجدة علي صالح ، الاستعمار الجديد في المنطقة العربية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة ، ١٩٨٤م .

(٥) فأين من ذلك مسلك الفاتحين المسلمين في جعل العقيدة - لا التوسع بالبغي - مناط حركتهم واحترامهم اديان الآخرين السماوية واقرارهم عليها حال رضاهم البقاء علي ما يدينون ورعاية ذمتهم والعهود معهم واسقاط الجزية علي غير القادر منهم بل واسقاطها عن الكافة حال تعذر الدفاع عنهم وحماية ارواحهم وممتلكاتهم - علي ما سيرد- وترك الأرض لأهلها مقابل خراجها وعدم تقسيمها عملا بسياسة عمر بن الخطاب في ذلك واعتبار الداخل في الاسلام كغيره من المسلمين فيكون له ما لهم وعليه ما عليهم بالعدل والبر والقسط في صد من ناصبهم العداء وظاهر علي اخراجهم وجعلهم القتال البديل الأخير لعرض الدعوة ، والتزامهم اخلاقه وهو ما شهدت به شعوب كثيرة من الذين رحبوا بالفاتحين المسلمين لتخليصهم من عنت النظم التي كانت عليهم . انظر علي سبيل المثال ما ورد في : دانيل دينيت ، الجزية في الاسلام ، ترجمة فوزي فهيم جاد الله ، بيروت ، مؤسسة فرانكلين ، ١٩٦٠ م ، مواضع متفرقة ، وانظر أيضا :

أما الحقيقة الخامسة فان حركة الفتح عبرت عن تفاعل متبادل بين مركز الدولة وأطرافها الجديدة التي قبلت رعويتها بفعل الحركة ومن ثم عن تفاعل بين الخليفة في المدينة وعماله ، أو قواده خارجها وقد اتخذ التفاعل من قبل الخليفة عدة صور ، منها ارسال الرسل أو ابداء الرأي والفتوي فيما يستدعي الاستشارة والفتوي ، أو توجيه النصائح في كيفية التحرك ووجهته في الدعوة ، أو النهي عن بعض الأمور ، أو الأمر ببعضها الآخر ، أو عزل بعض الولاة ، أو تقليدهم بعض المهام ، أو الاستجابة لبعض المطالب كإرسال المؤن والعتاد والجنود ، أو الانتقال الي بعض الأطراف لابرام المواثيق والعهود ، أو ماشاكل ذلك ، أما التفاعل من قبل قادة الأطراف فقد تعددت صوره ، كذلك بين استفتاء القيادة المركزية في بعض القيادة ، أو الرد علي بعض ما سألت بشأنه أو أمرت به ، أو استنصاحها ، أو نصحها ، أو طلب المدد والعون منها ، أو نقل أخبار الفتوحات اليها ، وكذا أخبار العدو وحال المسلمين معه ، أو اطلاعها علي ما ابرم من عهود وعقود مع غير المسلمين الي آخره من الأشكال.

وقد مكن هذا التفاعل المتبادل الخليفة الثاني من الاحاطة بأهم الأحداث التي كانت تجري خارج المدينة ، وكذا مكنته من اتخاذ القرارات المناسبة لما كان يستجد من أمور فضلا علي ما أحدثه – أي التفاعل – من ربط القيادات الفرعية بالقيادة المركزية ، ومن ثم ربطها بأولويات السياسة العامة للدولة ، وطبيعة موقع حركة الفتح منها ، الأمر الذي ترتب عليه وضوح الرؤية وعدم الاضطراب وتجنب الازدواجية والاختلاف بين ما كان يراه مركز الدولة وبين ما كانت تنتهجه أطرافها .

أما الحقيقة الأخيرة فانه يلاحظ أن أحداث حركة الفتح في خلافة عمر بن الخطاب اظهرت في اتجاهاتها كافة براعة المسلمين في أعمال القتال البري ، وعمليات الكر والفر، وسرعة التنقل والتنظيم علي الأرض ، لكن يقابل ذلك احجام واضح عن استخدام اساليب القتال البحري ، رغم سبق خبرة المسلمين في عصر النبوة في ركوب البحر ، لما هاجر من هاجر الي الحبشة بحرا ، غير انه مهما كانت آثار ذلك الاحجام ، فان ثمة أسبابا قد تفسر ابعاده منها طبيعة الحياة البدوية التي كان يعيشها المسلمون والتي جعلت ارتباطهم بمعيشة الصحراء أقرب الي القتال علي ظهرها من القتال علي ظهر البحر والبراعة في فنون ذلك أكثر من معرفة فنون القتال البحري، كما ذهب ابن خلدون [1] وارادة الخليفة عمر بن الخطاب في ان لايجعل بينه وبين المسلمين حاجزا من الماء ، وان يجنبهم البحر ما استطاع الي ذلك سبيلا فضلا علي تعرض المسلمين للهلكة في أحد البعوث التي سيرها الي الحبشة عن طريق البحر ، فآلي علي نفسه ان لايبعث بعدها جيشا في البحر غير ان هذا الاحجام العمري سرعان ما تحول الي اقدام في خلافة عثمان بن عفان نتج عنه تمرس

- Rudolph Peters , Islam and Colonialism , "The Doctrine of Jihad in Modern History", the Hague Mouton Publisher ,1979 , pp.18- 19

(١) انظر : مقدمة ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص٢٥٣.

المسلمين بالقتال البحري واستخدامه في كثير من الفتوحات ، وفى ذلك تفصيل مهم سبق تناوله فى رسالة الباحث للماجستير [1] .

المطلب الثالث : تحديات حركة الفيضان الخارجي لادارة الدولة :

فقد تضخمت حدود الدولة واتسعت اطرافها وامتدت مساحتها , ودخلت اعداد كبيرة في رعويتها من المسلمين ومن غير المسلمين وتعددت علاقاتها وتنوعت سلما وقتالا وهدنة ومن ثم تعددت تحدياتها وعظمت متطلبات ادارتها وتنظيمها واضحي التعامل مع هذه التطورات المختلفة وفق أسلوب أو نهج ادارة الدولة المحدودة بحدود مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم في حاجة الي المراجعة بما تقتضيه من تعديل أو تطوير أو تجديد أو الغاء أو غير ذلك من أساليب المراجعة ليلائم ما استجد من تغيرات هي في ذات الوقت تحديات لعل من أهمها :

١ – التغير في تركيبة الأمة ومكوناتها الاجتماعية :

فلم تعد أمة الاسلام هي تلك التي كانت تجمع المهاجرين والانصار ومن لحق بهم فدخل في الاسلام في عصر النبوة كما لم تعد التركيبة السكانية للمدينة مقصورة علي المسلمين واليهود وقبائل العرب التي دخلت فيما بعد فيما دخل فيه اهل السابقة الايمانية ثم ارتدت الي ان أعادها الخليفة الأول الي جادة الايمان فقد لحق بهؤلاء وهؤلاء أمم وشعوب من الشرق والغرب والشمال والجنوب من الروم والفرس ، وممن كانوا تحت ايديهم ، والبربر ، والاحباش وغيرهم من العرب والعجم والبيض والسود ، ممن كانوا ينطقون العربية وممن كانوا لايتكلمونها.

وهذه التركيبة الاجتماعية كانت في حاجة شديدة الي نموذج جديد للتوحيد والانصهار لتكوين الأمة الواحدة بصرف النظر عن الاختلافات السابقة وهكذا بدا التساؤل المهم الذي فرضه مثل هذا التطور الجديد مرتبطا بكيفية الاستفادة من الخبرة النبوية في صهر الولاءات المتعددة والانتماءات المختلفة لتخرج منها في النهاية الأمة الوسط التي تجعل الناس –من منطلق الايمان ووحدة العقيدة – سواسية بلا تمايز إلا في سبق الاخلاص للدين والاستقامة علي طريقته ، والتقوي في العمل بمقتضاه.

٢ – التغير في روافد ثقافة الدولة:

فالجموع الجديدة التي ضمتها الدولة صاحبها –علي تنوعها – علي مستوي التغير الكمي الذي تمخض عن اذعانها للاسلام – وربما علي مستوي أكبر– تغير كيفي ، ذلك أنها لم تكن بمجرد اعداد فردية أو جماعية دخلت في التوحيد بلا جذور ثقافية وقيمية ، بل كانت أكثر من ذلك تعبر عن شتات من هذه الجذور وبعبارة أدق انها لم تكن علي ثغر واحد من الثقافة والقيم ،

---

(١) تم تفصيل مسألة ركوب البحر والقدرة علي التعامل القتالي من خلاله في الأصول المنزلة وخبرة الخلافة الراشدة فى موضع آخر ، أنظر : مصطفى منجود ، الأبعاد السياسية للأمن في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٧٤٩-٧٥٦.

قبل ان تعلن عن اسلامها وفي اوائل عهدها به ومن ثم لم يكن متصورا أن تتخلي تلقائيا أو نهائيا عن هذه الموروثات ، أو أن تكره علي أن تفعل ذلك فور اسلامها ، فذلك مناف لحقائق الأمور فضلا علي أنه يحوي قدرا كبيرا من المغالطة ذلك أن للأفراد والشعوب والدول سننا في طبائعها ، وحدود التغيير فيها ومجالاته ، والقفز علي هذه السنن مآله الاخفاق ، لذا كان علي الدولة أن تتعامل مع التحول نحو الاسلام بكل ماصاحبه من تنوع في اللغات والاجناس والعادات والتقاليد والثقافات والمعتقدات والاعراف ، والميول ، والاهواء ، والأمزجة ، والطبائع، وغيرها من المؤثرات بشكل يستوعب التنوع ويوظفه بما يخدم وحدة الدولة ويحول دون ترهل جسدها وتفتته الي كيانات اقليمية أو عرقية أو طائفية تعصف بتماسكها ووحدتها وتقعد بحركتها عن النهوض والحيوية وانجاز .

٣ – التغير في طبيعة واجب سلطة مركز الدولة:

فقد ظلت مدينة النبي صلي الله عليه وسلم دولة محدودة الأطراف ، حتي نهاية خلافة ابي بكر الصديق الخليفة الأول ، لكنها مع خلافة الخليفة الثاني احاطت بها الأطراف من كل جانب تقريبا ، إن بفعل اقبال جانب كبير منها علي دين التوحيد ، أو بفعل قبول جانب آخر أن يدخل في رعويتها علي أن يستقر علي الديانة التي كان يدين بها من نصرانية أو يهودية أو مجوسية .واذا كانت هذه الأطراف لم تترك هملا بلا ضابط أو رابط في علاقتها بمركز الدولة ، وعلاقتها ببعضها البعض ، ابان انسياب حركة الفتح الاسلامي ،وما صاحبها من غزو وجهاد فقدكان حريا بقيادة الدولة –وقد دانت السيادة للمسلمين علي الأطراف المفتوحة – أن لا يخمد دأبها في ضبط العلاقة بينها وبين ولاتها عليها من حيث تحري الدقة في اختيار أنسب الولاة لها ، وفرض الرقابة عليهم ، ومحاسبتهم ، ومتابعة ما يجري داخلها ، وقضاء حوائج الناس بها ، وسماع شكاياتهم ، ومراعاة حقوق المسلم ، وغير المسلم ، وواجباته فيها ، وحمايتها من أي عدوان خارجي ، والرقابة علي مردود العلاقات بينها وبين غيرها من المسلمين ، وردع أي بادرة للتمرد في أي منها أن علي مركز الدولة ، أو علي نائب الخليفة في أي منها ، أو علي بعضها البعض وكفالة التراتيب الادارية والنظمية اللازمة لكل ذلك.

٤ – التغير في جوهر أمن الدولة الداخلي والخارجي:

فكل طرف من الأطراف التي ضمت الي الدولة أضاف عبئا امنيا جديدا كما ان جهات الأمن في الأطراف لم تعد بالتالي تشمل المسلمين واهل الكتاب والمستأمنين داخل المدينة وحدها ، وبؤر التمرد والاضطراب الداخلية غدا اتساعها متوقعا ، وكذا بؤر التهديد والانتهاك الخارجي ، وثغور المسلمين اتسعت وتعددت ، ومهام الرباط والجهاد تنوعت وازدادت مع كل ذلك تكلفة واعباء ، وهذه التحديات جميعها كانت تستلزم تغييرا في كنه القوة ونمطها الواجب اعداده لتحقيق الأمن والحفاظ عليه وضرب الاعتداء عليه ومن ثم كان يستلزم تغييرا في جيش المسلمين عدة وعتادا وتنظيما وأساليب قتال، ومعني ذلك أن مفهوم الأمن بمبادئه واولوياته وحركته في التعاملين

الداخلي والخارجي بعد الفتوحات قد شهد تغيرا كبيرا فرض علي مركز الدولة ان ينظر الي اعباء ذلك نظرة جديدة قوامها استواء المسئولية عن أمن العاصمة والمسؤولية عن أمن اطرافها وادراك أن أمن الدولة بكل من فيها وما يخضع لسيادتها يقتضي ازالة مصادر الخوف والاضطراب وما يعرض للتبديد والضياع كافة ، ويبدو أن عمر بن الخطاب كان يخشي علي نفسه الحساب العسير فيما لو قصر في القيام بالواجب الأمني مهما كانت درجته ، وأيا كانت وجهته ، بل حتي لو أصاب التقصير حيوانا يرعي في ناحية من نواحي الدولة ، ولذلك وجدناه يقول "والذي بعث محمدا بالحق لو ان جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت ان يسألني ا لله عنه " [1] .

٥ – التغير في كيفية التصرف في اراضي الدولة التي فتحها المسلمون :

فالاقاليم التي فتحها المسلمون ما كانت لتترك بلا تصرف يحسم أمر ادارتها وامتلاكها ، و لم يكن ثمة مخرج من ذلك إلا اختيار احد مسلكين اولهما ان تترك علي ما كانت عليه قبل ظهور الاسلام عليها ، حيث اقرار اهلها عليها ، ملكية وادارة ، خاصة اذا كانوا اهل ذمة ، علي ان يؤدوا الي الدولة ما تفرضه عليهم من التزامات علي نفوسهم واراضيهم ، وهنا يصير التساؤل المنطقي : ما هي ضمانات استمرار استقرارهم ، وآدائهم التزاماتهم حيال الدولة ؟ وكيف السبيل الي متابعة ذلك والرد علي اية بادرة للتمرد أو الخروج علي السلطة المركزية للعودة الي ما كانت عليه قبل ابرام العهود والالتزامات مع المسلمين بعد فتحها ؟ . والمسلك الثاني ان يعتبر الاستحواذ عليها أو وقوعها في قبضة الفاتحين صلحا أو عنوة داخلا في أحكام الفيء أو الغنائم ، فتوزع وتقسم حسب الأنصبة الشرعية ومن ثم يكون للفاتحين حق امتلاك ما ينالونه وادارته وليس لأهلها المقيمين عليها. وهنا يصبح التساؤل المنطقي المتعدد الأبعاد كسابقه : ما هو مصير أهل هذه الأراضي وقد بعدت عنهم مصادر اعالتهم وارزاقهم ؟ وما هو دور الفاتحين بعد امتلاكهم الاراضي واقتسامها هل يتولونها بانفسهم ؟ أم يفوضون أمرها ادارة ورعاية الي من ينوب عنهم ؟ وما هي الضمانات التي تمنع ان يترتب علي امتلاك الأراضي التنافس والصراعات بين الملاك الجدد. واهلها الذين كانوا عليها ؟ بل ما هي الضمانات كذلك ان لا يثور هؤلاء الأهالي – وقد هيئوا لذلك – أو أن يستعملوا كمادة للثورة من الخارج ضد المسلمين ؟ وأين أمن الدولة وأطرافها من كل ذلك ؟

المطلب الرابع : الخليفة الثانى والتعامل مع تغير حركة الفيضان الخارجى للدولة :

فقد أوتي الخليفة الثاني عمر بن الخطاب من فراسة الحكم وتدبير السياسة ما مكن الدولة الاسلامية في خلافته من أن تسير علي نحو متوازن في ادارة امورها داخليا وخارجيا وعلي نحو

---

(١) انظر ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص٤٥٢ . وفي رواية الطبري " خشيت ان يسأل ا لله عنه آل الخطاب " ، انظر تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص٢٧٢ ، وفي رواية ابن سعد " لو مات جمل ضياعا علي شط الفرات لخشيت ان يسألني ا لله عنه ". انظر الطبقات الكبري، مرجع سابق، ج٣ ، ص٢٣٢.

استطاعت معه ان تستوعب تحديات التغيرات السابقة -علي خطورتها- بمجموعة من الممارسات والأساليب والآليات التي درج مؤرخو المسلمين علي وصفها بأوليات عمر بن الخطاب ، نظرا لسبقه بها ، وتفرده عن غيره من الخلفاء في المبادرة بها ، وقيادة الأمة على هداها . ومن هذه الأوليات تسميته أمير المؤمنين وكتابة التاريخ في شهر ربيع الأول سنة ستة عشر ابتداء من هجرة النبي صلي الله عليه وسلم وجمعه القرآن في الصحف ، وسنة قيام شهر رمضان ، وجمعه الناس علي ذلك ، والكتابة به الي الأطراف ، وجعله قارئين للناس بالمدينة أحدهما للرجال والآخر للنساء، وضربه في الخمر بثمانين جلدة ، واشتداده علي أهل الريب والتهم ، وتفقده احوال المسلمين ليلا بالمدينة ، وحمله الدرة والتأديب بها ، ومسحه أرض السواد وأرض الجبل، ورفضه تقسيم الأراضي المفتوحة ، ووضع الخراج عليها ، والجزية علي جماجم اهل الذمة فيما فتح من الأطراف ، وتمصير الأمصار الكوفة ، والبصرة ، والجزيرة ، والشام، ومصر ، والموصل ، وانزال العرب اياها ، وخطه الكوفة ، والبصرة خططا للقبائل ، واستقضاؤه القضاة في الأطراف ، وتدوينه الدواوين ، وكتابته الناس علي قبائلهم ، وفرض الأعطيات لهم ، وحمله الطعام في السفن من مصر في البحر ، واتخاذه دار الدقيق، ووضعه في طريق السبل ما بين مكة والمدينة ما يصلح ما ينقطع به الطريق ، ويحمل من ماء الي ماء ، واخراجه اليهود من الحجاز ، واجلائهم من جزيرة العرب الي الشام ، وكذا اهل نجران وانزالهم ناصية الكوفة [1] .

وقد لانعدو الحقيقة حال القول ان لهذه الأوليات دلالاتها في إثبات :

أ ـ الملكة الاجتهادية التي كان يتمتع بها الخليفة الثاني وقدرته علي قراءة واقع عصره ومجتمعه وقراءة أصول تشريع الدولة التي كان يقودها قرأنا وسنة بلغة واعية والربط بين القراءتين بما يخدم آداء الدولة لواجباتها الايمانية ويعز الدين دعوة ودولة لتصدق فيه دعوة النبي صلي الله عليه وسلم " اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب " [2] .

ب ـ ان وعي الخليفة بحركة مجتمعه ومتطلباته لم يقف عند حد ، فقد عدل في بعض فعاليات الحركة التي اسست قبله ، وطور من بعضها ، وغير في بعضها، وابتدع الجديد، وفقا لحاجة امته، وحاجة عصره ، وحاجة استعلاء شريعة الله لتكون لها اليد العليا الحاكمة ، وقد اثمرت هذه الرؤية المرنة مصداقية كبيرة طوال خلافته ، وردحا من خلافة تابعه ، لتصدق فيه مرة اخري فراسة النبي

---

(١) انظر عرضا وافيا لهذه الأوليات وغيرها ،اوردها : الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٣، ص ص ٢٧٧-٢٨١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ص ٤٥٤-٤٥٥ ؛ ابن سعد، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ص ٢١٣-٢١٥ ؛ ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص ١٤٧.

(٢) انظر : ابن سعد ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص٢٠٢ .

صلي الله عليه وسلم حين قال "ان الله جعل الحق علي لسان عمر وقلبه ، وهو الفاروق ، فرق الله به بين الحق والباطل " [1] .

ج ـ اعتباره مصلحة الأمة رائدا فيما لا نص فيه حازما كأساس لتغيير أمور سياستها الشرعية، ولاتخاذ القرار السياسي فيما عرض من قضايا ومشكلات ،دون حيف في التزام مقاصد الشريعة ، أو افراط في تغليب أهواء الحكم ،خليفة ورعية ، ومن هذا المنطلق كان قراره بعدم تقسيم الأراضي التي فتحها المسلمون، وضربه الخراج عليها ، ابتغاء مصلحة المسلمين في ضمان تأمين ارزاق البلاد والعباد، وضمان ايجاد مصدر ثابت للعطاء ، والانفاق علي من يتمتعون برعوية الدولة واجيالهم ، وكذلك للانفاق علي ثغور المسلمين وجيوشهم في كل ناحية، رغم أن هذا القرار كان يتعارض مع مصالح نفر من كبار الصحابة رأوا رأيا آخرمخالفا، هو التقسيم والتوزيع، باعتبار أن الأرض التي فتحوها ليست إلا فيئا أفاءه الله عليهم بالجهاد والغزو،ومن ثم فهم الأحق به دون غيرهم، فلما حاجهم في ذلك واستبانت حجته، وافقه كثير منهم علي مسلكه [2] .

د ـ قدرة الخليفة علي تنويع أساليب استجابة الدولة كي تغطي جبهات عديدة، ومصالح حيوية متنوعة في امور الفقه ، والقضاء ، والخراج ، والحدود ، وتمصير المصار، وتدوين الدواوين، واجلاء اليهود ، وتعيين الولاة وعزلهم ، وتلبية حاجات ابن السبيل ، وكفالة الأرزاق ، وغير ذلك من أولياته السابقة بما يشهد علي مدي اقترابه من حياة الناس ، وتفقده احوالهم ، ومعرفة أوجه الخلل فيها والعوز والقصور ، وتدبير المناسب من الاجراءات والنظم ضمانا لاستقامة الحياة لهم به وله بهم ، وهذا مقام الالتزام بواجبات الحكم ايا كانت ، والتي كان يعدها الخليفة الثاني ابتلاء متبادلا بينه وبين رعيته كقوله " فقد ابتليت بكم وابتليتم بي وخلفت فيكم بعد صاحبي ، فمن كان بحضرتنا باشرناه بانفسنا ، ومهما غاب عنا ولينا اهل القوة والأمانة ، فمن يحسن نزده حسنا ومن يسيء نعاقبه " [3] .

هـ – شجاعته في مراجعة الذات ، والنزول عند الحق ، ما استبان له مناسبة ذلك لمصالح الدولة ، ولذلك رأيناه يعدل عن سيرته في بعض الأوليات السابقة ليعود الي سيرة اخري ، مثل عزمه في تغيير مبدئه في التفرقة بين الناس في العطاء حسب سابقتهم في الانتساب لبيت النبوة ، وسبقهم في الايمان والهجرة ، والعودة الي ما كان ينتهجه سلفه في التسوية بينهم في العطاء ، وقد

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص٢٠٥ ؛ وانظر في حيوية عملية التغيير التي اجراها في عصره وابعادها ومناحيها : مصطفي منجود ، الفتنة الكبري ، مرجع سابق ، ص ص ١١٦-١٢٥ .

(٢) انظر : القاضي أبو يوسف ، الخراج ، القاهرة : المطبعة السلفية , الطبعة السادسة ١٣٩٧ ، ص٢٨-٢٩ ؛ وانظر دراسة سياسية للقيم والمصالح الامنية في قضية الموقف من الاراضي المفتوحة عنوة في خلافة الخليفة الثاني في : مصطفي منجود ، الأبعاد السياسية للامن ، مرجع سابق ، ص ص ٤٥٩-٤٧٣ .

(٣) انظر ابن سعد ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص٢٠٨ .

ورد عنه قوله في ذلك "وا لله لئن بقيت الي هذا العام المقبل لالحقن آخر الناس بأولهم ، ولأجعلنهم رجلا واحدا " [1] . كذلك تغييره بعض ملامح سياسته في رعيته بما توافق وابتلاء المسلمين عام الرمادة ، ضمانا لاستقامة القصد والنهج والناس ، ذلك أن الناس كما كان يقول " لم يزالوا مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم " [2] كما ان "الرعية مؤدية الي الامام ما يؤدي الي الله ، فاذا رتع رتعوا " [3] ، ويمثل هذا النمط من وعي القيادة تجاوزت الدولة الاسلامية في خلافة عمر بن الخطاب ما استجد من تغيرات فأتت أولياته وما احدث فيها من تجديد واجتهاد في مناح شتي أكلها في قدرة الجماعة السياسية علي استيعاب مشكلاتها السياسية ، وبناء أدوات التعامل مع هذه المشكلات ، وسرعة الاستجابة للمواقف السياسية والحفاظ علي التماسك من خلال التنقل من موقف الي آخر والبعد عن العنف في استيعاب تغيرات حركة المجتمع السياسي [4] .

وقد ساعد عمر بن الخطاب علي كل ذلك ما انتهجه من مباديء قيمية في سياسة الناس وقيادتهم ، فقد كان يتمثل الاقتداء بقيادتي الأمة قبله ويستحضره "انه مضي صاحبان لي يعني النبي صلي الله عليه وسلم وابا بكر، عملا عملا وسلكا طريقا ، واني ان عملت بغير عملهما سلك بي طريق غير طريقهما " [5] ، وكان ينزل مال الله من نفسه بمنزلة مال اليتيم ، من كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف [6] .وكان يقتص للضعيف من القوي وللقوي

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص٢٢٩ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص٢٢٢ .

(٣) انظر نفس المرجع السابق .

(٤) انظر التفاصيل في مصطفي منجود ، الفتنة الكبري ، مرجع سابق ، ص ص ١٥٥-١٦٠. وانظر بصفة عامة في جوانب عطاء سياسة الخليفة الثاني للمجتمع الاسلامي في عصره : محمود شاكر ، مرجع سابق ، ص ص ٢١٠-٢١٣ ؛ عبد المتعال الصعيدي ، مرجع سابق ، ص ص ٣١-٣٦ ؛ الامام محمد أبو زهرة ، الوحدة الاسلامية ، مرجع سابق ، ص ص ١٢١-١٣٦ . د. محمد سليم العوا ، مرجع سابق ، ص٨٣-٨٤ ؛ د محمد انيس عبادة ، عمر بن الخطاب والتشريع الاسلامي ، القاهرة : المجلس الأعلي للشئون الاسلامية ، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م ، ص ص ٢٦-١٣٠ ؛ د محمد بلتاجي ، منهج عمر بن الخطاب في التشريع ، القاهرة : دار الفكر العربي ١٩٧٠، مواضع متفرقة ؛ د. منظور الدين احمد ، مرجع سابق ، ص ص ١٧٣-١٧٥ .

وانظر ايضا

- Ali Dashti, op. cit ., pp173 - 177 ; Edward Attiayh, op. cit ., pp32 -36; Francesco Gabrieli , op. cit ., pp 93 - 94 ; Hugh Kenned , op. cit , pp 57-69, Ismail. R.Al Faruqi and lois Lamya Al Fruqi, The Cultural Atlas of Islam , New York : Macmillan Publishing publishers Company, London: Collier Macmillan , 1986 , pp. 202-216 ; Akram Raslan ,op.cit., pp.177-123

(٥) انظر ابن سعد ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص٢١٩ .

(٦) انظر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص٢٠٩ ؛ والقاضي أبو يوسف ، مرجع سابق، ص١٢٧ .

من الضعيف بالعدل ويقول "اني لم استعمل عليكم عمالي ليضربوا ابشاركم ، وليشتموا اعراضكم ، ويأخذوا اموالكم ، ولكني استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا اذن له علي ليرفعها الي حتي اقصه منه" [1] فلما قام اليه رجل فقال "يا أمير المؤمنين ان عاملك فلانا ضربني مائة سوط قال : فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه ، فقام عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين انك ان فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك فقال: انا لا اقيد وقد رأيت رسول ا لله صلي ا لله عليه وسلم يقيد من نفسه قال فدعنا فلنرضه قال دونكم فارضوه ، فافتدي منه بمأتي دينار ، كل سوط بدينارين " [2] .

وكان يوازي بين الشدة واللين في رعيته ، حتى قال للصحابي عبد الرحمن بن عوف "يا عبد الرحمن : وا لله لقد لنت للناس حتى خشيت ا لله في اللين ثم اشتددت عليهم حتي خشيت ا لله في الشدة فأين المخرج " [3] وكان يبدأ بنفسه واهله في الالتزام بالقرارات والسياسات ويقول لهم "لا اعلمن احدا وقع في شيء مما نهيت عنه إلا اضعفت له العقوبة " [4] وكان يرأف بغيرالمسلمين ويوصي بحسن معاملتهم والعدل معهم، وروي عنه - وقد مر علي قوم - وهو راجع في مسيرة من الشام قد اقيموا في الشمس يصب علي رؤوسهم الزيت انه قال " ما بال هؤلاء ؟ فقالوا عليهم الجزية لم يؤدوها فهم يعذبون حتي يؤدوها ، فقال عمر فما يقولون هم ؟ وما يعتذرون به في الجزية ؟ قالوا : يقولون لا نجد قال : فدعوهم ، لا تكلفوهم ما لا يطيقون فاني سمعت رسول ا لله صلي ا لله عليه وسلم يقول :"لا تعذبوا الناس فان الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم ا لله يوم القيامة" وأمر بهم فخلي سبيلهم " [5] .

المبحث الرابع : التطور الرابع : وهن الدولة وانحسار حركة الايناع داخليا وخارجيا:

فما ان قضي الخليفة الثاني نحبه قتلا - غيلة وغدرا - حتي تنبأ نفر من المسلمين بان أمر دولة الاسلام بعده سيزداد وهنا علي وهن ، وتقدم ركب المتنبئين طائفة من كبار الصحابة الذين كانوا يعرفون قدر عمر بن الخطاب، ويصدرون عن وعي وبصيرة في رؤية التطور السياسي عقبه ، والواقع ان لغة الاشفاق علي الدولة والخوف مما سيلحق بها كانت اللغة الغالبة علي ما تنبأوا به بل قد لايعد من قبيل مجاوزة الحقيقة القول بأن الحزن علي فقد الخليفة لم يشغلهم قدر حزنهم علي ما توقعوا ان يخسره المسلمون بفقده . لذلك وجدنا عبد ا لله بن مسعود يقول "ان عمر كان للاسلام حصنا حصينا يدخل الاسلام فيه ولا يخرج منه فلما قتل عمر انثلم الحصن فالاسلام

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص٢١٣ ؛ أبو يوسف ، مرجع سابق ، ص١٢٥.

(٢) انظر المرجع السابق ، ج٣ ، ص٢٢٣ ؛ أبو يوسف ، مرجع سابق ، ص١٢٥.

(٣) انظر : ابن سعد ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص٢١٨.

(٤) انظر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص٢١٩ .

(٥) انظر : أبو يوسف ، مرجع سابق ، ص١٣٥ .

يخرج منه ولا يدخل فيه" [1] ، أما سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فبكي لموت عمر بن الخطاب فلما سئل : ما يبكيك فقال "لا يبعد الحق واهله ، اليوم يهى أمر الاسلام " [2] حين ان أبا عبيدة بن الجراح قد اقلقه حال الاسلام بعد عمر فقد كان من رأيه "ان مات عمر رق الاسلام ، ما احب ان لي ما تطلع عليه الشمس أو تغرب ، واني أبقي بعد عمر قال قائل : ولما ؟ قال سترون ما اقول ان بقيتم ، أما هو فان ولي وال بعد عمر فاخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يطع له الناس بذلك و لم يحملوه ، وان ضعف عنهم قتلوه " [3] .

وكأنما الاقدار قد أرادت أن يصدق ما توقعه هؤلاء الصحابة فلم يكد يمضي من الزمان ردحا طويلا حتي تعرض المسلمون بعد عمر بن الخطاب لمحنة أصابت جسدهم السياسي بتصدعات كبيرة أمسكت بتلابيب بعضها البعض فكان طبيعيا أن تؤثر سلبيا علي سيرة الدعوة وايناع الدولة فاذا بالفتنة تنتشر بالداخل لتمسك بزمام الوجود السياسي وتبسط ادواءها اختلافا وانقساما ، ودماء واغتيالاً وهدما في ميادين كثيرة واذا بها تطبق علي فيضان الدولة علي الخارج لتمتد مثالبها تمردا في الأطراف بمساعدة أطراف غير مسلمة خارجية وانتفاضا علي السلطة المركزية ، وانحسارا لحركة الفتح وارتدادا في الوظيفة الحضارية للجهاد وطمعا خارجيا في حدود الدولة ، ونقضا للعهود معها ، وهكذا تكاثفت ادواء الداخل مع مثالب الخارج ليحل الضعف بالدولة، ولما لم يجد الوهن من يمنع استشراءه بدت تداعياته - منذ قتل الخليفة الثاني وحتي مقتل آخر الخلفاء الراشدين الأربعة - وكأن كل واحد منها بمثابة القاصمة التي لم تجد نموذجا قياديا كأبي بكر وعمر يحولها الي عاصمة ولعل رصدا عاما لملامح الخبرة السياسية في تلك الفترة يسمح لنا أن نعدد من سلسلة هذه القواصم ما يلي :

المطلب الأول : قاصمة انتشار الاختلاف والتمزق في عاصمة الدولة :

فرغم حرص الخليفة الثاني علي انتهاج نهج سلفه في مساعدة الجماعة السياسية علي سد أبواب الافتراق حول اختيار من يخلفه بوضع تصور دقيق يسهل علي المسلمين الفراغ من هذه المشكلة [4] إلا ان الخلافة بعده استهلت بالاختلاف والشقاق و لم تزل أسباب كليهما تستحكم في عاصمة الخلافة لتنتقل بفعل التداعي والعدوي بعد ذلك الي أطرافها وان اختلفت هذه الأسباب واختلفت من ثم اشكال هذين الداءين ولقد ظل عهد الخلافة بهما مستمراً منذ ان تولي الخليفة

---

(١) انظر ابن سعد ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص٢٨٣ .

(٢) انظر المرجع السابق ، ج٣ ، ص٢٨٤ .

(٣) انظر نفس المرجع السابق .

(٤) اورد الباحث تحليلا سياسيا لتصور الخليفة لحل مشكلة اختيار القيادة السياسية بعده في موضع آخر بالتفصيل. انظر مصطفي منجود ، الأبعاد السياسية للأمن، مرجع سابق، ص ص٤٧٤ ٤٨٥ .

الثالث قيادة الدولةوحتي غربت شمس الخلافة الراشدة الي حيث ملك بني امية ٠ولعل أبرز مظاهر الشقاق الداخلي علي سبيل المثال:

١ - الاختلاف حول اختيار أي من عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب اللذين استقر الترشيح للخلافة بعد عمر بن الخطاب فيهما واذا كان غالبية المسلمين قد بايعوا في النهاية الأول إلا ان باب الاختلاف علي مبايعته لم يغلق تماما ، حين ظهر من ينادي بأن في ابعاد علي عن الخلافة ثمة خدعة ومحاباة لبني امية ، ناهيك عن رفض سلطان بني هاشم من قريش [١] ، وحتي لما اغتيل الخليفة عثمان تفجرت مشكلة من يخلفه من جديد واسقط في ايدي المسلمين من حيث عادوا الي حالة كتلك التي كابدوا مشقتها وفتنتها عقب انتقال الرسول صلي الله عليه وسلم الي جوار ربه ، مع الفارق فالرسول صلي الله عليه وسلم لم يقتل كما قتل عثمان وعاصمة الدولة لم تكن تحت رحمة أو حصار عناصر الفتنة والقتل كما حدث قبيل مقتل عثمان وبعده ، وطبيعة مكانة العاصمة ووضعها بالنسبة لدولة متعددة الأطراف لم تكن كذلك في عصر النبوة، وأصحاب السابقة في الدين والصحبة مع قيادة النبوة لم يتقدم عليهم من لا سابقة لهم في دين أو خلق أو صحبة ، كما كان حال العاصمة ابان اغتيال الخليفة ، ثم أن المسلمين فوق كل ذلك لم تكن ناصية الأمور ومقاليدها بأيديهم كي يختاروا خليفتهم- كحالهم بعد انقضاء عصر النبوة- بقدر ما اضطرتهم عناصر الفتنة داخل العاصمة الي البحث عن بديل للخلافة، ومن هنا جاءت عملية اختيار الخليفة الرابع وسط مجموعة من الملابسات غير الطبيعية اذا ما قورن شأنها بشأن اختيار الخلفاء قبله، ورغم ذلك فان المسلمين -بدلا من تجاوز المحنة- تفرقوا سبلا وأوزاعا بين مؤيد لبيعته ومعتزل لها ورافض ان يدخل فيها [٢] ، مما ترك بصماته علي ممارسات الخلافة علي نحو ماسيرد .

٢ - الاختلاف حول تصفية بعض مواقف الأزمة التي تفجرت عقب مقتل الخليفة الثاني مباشرة ، ولعله كان في مقدمة ما اختلف فيه الموقف من ابن الخليفة الذي اخذته حمية الثأر لأبيه مأخذا بعيدا ، فقتل ثلاثة -ابنة ابي لؤلؤة قاتل أبيه وجفينة النصراني والهرمزان الفارسي اللذين تآمرا مع ابي لؤلؤة علي قتل الخليفة- ليضع المسلمين في مأزق التعامل معه ، فمنهم من اراد القصاص منه ، ومنهم من رأي العفو ودفع الدية ، وقد اختار الخليفة عثمان الموقف الثاني ، بيد أن ما اختاره لم يمنع اظهار الاختلاف معه والمجاهرة بمؤاخذته علي ذلك [٣] .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص ص ١٥٨ - ١٦١ ؛ مصطفى منجود ، الفتنة الكبرى ، مرجع سابق ، ص ص ١٩٦ - ١٩٩ ٠

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص ص ٢٤٦-٢٤٩ ؛ المودودي ، الخلافة والملك ، تعريب احمد ادريس ، الكويت : دار القلم ،طبعة اولي ، ١٩٧٨ ، ص ص ٧٤-٧٦ ٠

(٣) انظر في قضية عبيد الله بن عمر والقصاص منه : ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج ٧ ، ص ص ١٦٢-١٦٣ ؛ د٠ محمود شاكر ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ص ٢٣٧-٢٣٩ ٠

٣ - الاختلاف حول أعوان السلطة فقد شهدت خلافة عثمان تغييرا كبيرا في ادارته السلطة، داخل العاصمة وخارجها ، كانت أكثر مظاهره اثارة للمؤاخذة والاختلاف تقدم ركب بني امية ، الذين جاءت توليتهم مصحوبة بمنغصات كثيرة في حكم الدولة ، ولم تفلح جهود الخليفة الثالث أو حججه في الدفاع عن تقريبه اياهم ، وجعلهم علي رؤوس المسلمين خاصة وقد اخذ المسلمون علي بعضهم ما رأوه يقدح في عدالة ولايتهم ، ولذلك ضج الناس بالشكوي منهم وطلبوا اقالتهم عن ولاية الاطراف [١] فلما جاء الخليفة الرابع ليقوم ما رآه الناس قد اعوج بولاية بني امية لم يفلح في ازالة الآثار السلبية التي تركتها هذه الولاية -رغم انه أقال كثيرا من اقارب سلفه [٢] - بل أن بعضا ممن كان لهم نصيب في الولاية رفض اقالة الخليفة له ، ونازعه في ذلك بل ورفض مبايعته ، ودخل معه في حروب ودماء ، وما أمر معاوية بن سفيان في ذلك ببعيد .

- ٤ - الاختلاف حول الموقف من التصدي لاحتلال مركز الدولة ، فقد شاعت الفتنة واشتد أوارها في أطراف عديدة ، أنكرت علي الخليفة الثالث كثيرا من سياساته ، ولم تنجح معها محاولاته في وأدها بكثير من الاصلاحات ، وأغراها مسلك الخليفة المسالم علي تبييت النية للتحرك من كل ناحية لتلتقي في قلب العاصمة ، فتحاصر اهلها حاكما ومحكوما ، فبان أمر الخلافة معها وكأنها قد تعرضت لغزو خارجي ، حال بينها وبين آدائها واجباتها الشرعية وخيم علي الوجود السياسي تساؤل عن الموقف من هؤلاء المحتلين الذين قدموا من مصر ، والكوفة ،والشام ، والبصرة ، غير أن التساؤل أوجد له المسلمون اجابات مختلفة ، فثمة من كان يري أن قتال هؤلاء المحاصرين رائدي الفتنة فرضا دينيا ومصلحة شرعية لأنهم بغاة ، وثمة من آثر إلا أن تحقن الدماء ولاتسل السيوف عليهم ، رغم الحصار والترويع وانحاز الخليفة للمسالمة متأولا في ذلك تأويلات عديدة ولما لم يكن بد من طاعته وكانت الشوكة العددية والعتادية للمتمردين فان توقع غلبتهم كان أمرا مؤكدا [٣] غير أن احدا من ذوي السابقة في الدين من الصحابة لم يكن يتوقع ان تصل الغلبة الي مداها بقتل الخليفة .

٥ - الاختلاف حول أحقية ولاية القصاص للخليفة الثالث ، ومدي أولويته في واجبات السلطة بعده ولعله احد ابواب استهلال الوهن في خلافة علي بن ابي طالب وانفراط عقد الجماعة

---

(١) انظر ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص ص١٨١-١٨٦ ؛ د. منظور الدين احمد ، مرجع سابق ، ص١٧٦؛ المودودي ، الخلافة والملك ، ص ص ٦٤-٧١ .

(٢) انظر ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص ص ٢٤٩-٢٥٠ ؛ د.منظور احمد ، مرجع سابق ، ص١٧٨ .

(٣) انظر في ملابسات مقتل الخليفة والموقف بشأن المتمردين : ابن كثير ،البداية ، مرجع سابق ، ج ٧ ، ص ص ١٨٢ - ٢١٠ ؛ ابن العربي ، العواصم ، مرجع سابق ، ص ص ١٠٩-١٤١ ؛ المودودى ، الخلافة والملك ، مرجع سابق ، ص ص ٧١ - ٧٤ ؛ د. محمود شاكر ، مرجع سابق، ج٣ ، ص ص ٢٣٩ - ٢٤٨ ؛ عبد المتعال الصعيدى ، القضايا الكبرى فى الاسلام ، القاهرة : مكتبة الآداب ، ١٩٦٠ ، ص ص ١٥٩ - ١٦٣ .

فيها ، ذلك أن اقارب الخليفة من بني امية كانوا يربطون بين بيعتهم لعلي بن ابي طالب وبين احقيتهم في القصاص من قتلته ، والخليفة الرابع ونفر ممن شايعه كانوا في صف التريث والتمهل والبدء بازالة آثار التمرد الداخلي ، والتخلص ممن تسببوا فيه تمهيدا لرأب الصدع العام واعادة الهيبة للدولة قبل تنفيذ أية سياسة أخري ، ونفر من كبار الصحابة عدوا الأمر كله فتنة عمياء لا مخرج منها إلا بالاعتزال حتي تعود للمسلمين جماعتهم وبعضهم الرابع تقدمهم ثلاثة من كبار الصحابة هم طلحة والزبير وام المؤمنين عائشة اعلنوا انه لا مجال للتهاون والمهادنة في الثأر للخليفة المقتول فخرجوا يقودهم هؤلاء الصحابة من العاصمة وهم يلعنون القتلة ، ويستنصرون الناس كي يقتصوا منهم [1] ، وهكذا انهار أمر المسلمين في مركز الخلافة فكان ايذانا بانهيار أمرهم في بقية اطرافها ، خاصة لما جري السيف والدماء بينهم بدل الحجة والحوار.

المطلب الثاني : قاصمة نشر الدعاوي الهدامة في انحاء الدولة :

وهي الدعاوي التي لاتعدو ان تكون نوعا من أساليب الحرب النفسية التي أججت نار الفتنة وزادتها اضطراما في انحاء الدولة كافة ويدخل فيها النماذج التالية :

- دعاوي التحيز القبلي والاستعلاء العصبي التي ابطلها الاسلام خاصة تلك الدعاوي التي صدرت عن بعض الولاة الأمويين الذين عينهم الخليفة الثالث أمراء علي أطراف الدولة وأظهروا فيها تفوق بني امية وجدارتهم بالملك علي رقاب الناس [2] .

- دعاوي التزوير والتدليس ، للطعن في الخليفة الثالث وسياساته الداخلية، وكان في مقدمتها تزوير الكتب ، ونشرها في الأفاق ، لاحداث البلبلة والاضطراب ، وايقاع الفرقة ، خاصة الكتب

---

(١) انظر الاختلاف حول الموقف بعد عثمان من قتلته ومن قيادة الدولة : ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص٢١٠ وما بعدها ؛ ابن العربي ، العواصم ، مرجع سابق ، ص ص ١٤٢-١٦٢ ؛ ابن سعد ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص٢٣ ؛ المودودي ، الخلافة والملك ، مرجع سابق ، ص ص ٧٤-٨٠ ؛ د. محمود شاكر ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ص ٢٥٧-٢٧٤ .

(٢) ومن ذلك ان الخليفة الثالث لما سير جماعة اهل الكوفة الي الشام بعد ان تكلموا بكلام قبيح في مجلس سعيد بن عامر واليه عليها ، فاستقبلهم والي الشام معاوية . يقول ابن كثير "فاحتملهم معاوية لحلمه واخذ في مدح قريش ، وكانوا نالوا منهم ، واخذ في المدح لرسول الله صلي الله عليه وسلم والثناء عليه والصلاة والتسليم وافتخر معاوية بوالده وشرفه في قومه ، وقال فيما قال : واظن ابا سفيان لو ولد الناس كلهم لم يلد إلاحازما " انظر ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص ١٨١ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٣ ،ص ص ٣٦٥-٣٦٦ وروي عبد القادر بدران في " تهذيب تاريخ ابن عساكر" وان ابا سفيان انتصر لعصبية بني امية عقب ولاية عثمان بن عفان وكان يقول "اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية ، والملك ملك غاصبيه ، واجعل لوتاد الأرض لبني امية" انظر عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ ابن عساكر ، بيروت : دار المسيرة، طبعة ثانية، ١٣٩٩هـ ، ج٦ ، ص٤٠٩ .

التي كانت تزور علي ألسنة كبار الصحابة يزعم فيها مروجوهـا رفض هؤلاء الصحابة لمواقف الخليفة ودعوتهم الي تخليص المسلمين من ولايته ، ورهطه من بني امية [1] .

- دعاوي افساد الصلح بين المسلمين في الأوقات التي كانت خلافاتهم فيها اقـرب الي العفـو والصفح المتبادل ، فاذا بهذه الدعـاوي ترد الأمور علي اعقابهـا ، فتتحول الخلافات الي قطيعة وتبادل الاتهام ، ثم الي قتال ودماء ، ولعل ما حدث مـن افساد الصلح بين الخليفة الرابع وبين أصحاب الجمل مثال علي ذلك، اذ سعي مروجو الفتنة الي انشاب القتال ، واراقـة الدمـاء ، حتي يشغل ا لله عليا ومعارضيه عن المفسدين ، فلا يرون منهم ما يكرهون [2] .

- دعاوي السبئية اتباع عبد ا لله بن سبأ اليهودي الذي أظهر الاسلام وأبطن غيره، مما سهل له نشر افتراءاته في ديار المسلمين ، في العاصمة وخارجها ، فأثمرت اخبث الثمار ، بعد ان صدمت مقولاته ومزاعمه عقيدة المسلمين واخلاقهم ، مما افاضت فيه كتب الملل والنحل فضلا علي اضافات المؤرخين المسلمين الاقدمين ، وان كان بعض المعاصرين انكر عليه ذلك ، ان لم يكن قـد انكر وجوده اصلا [3] .

---

(١) انظر نص رواية الطبري لكتاب الصحابة الي من بالافاق : في تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج ٣، ص ص ٤٠٠-٤٠١ ؛ وانظر رؤية سياسية لهذا النص في : مصطفي منجود ، الفتنة ، مرجع سابق ، ص ص ٢٥٧-٢٥٩ ؛ وقد اورد ابن كثير حديثا عن الكتب المزورة في خلافة الخليفة الثالث وقد ما رواه الطبري منها قائلا " وذكر ابن جرير من هذه الطريقة ان الصحابة كتبوا الي الآفاق من المدينة ، يأمرون الناس بالقدوم علي عثمان ، ليقتلوه ، وهذا كذب علي الصحابة وانما كتبت كتب مزورة ، كما كتبوا من جهة علي وطلحة والزبير الي الخوارج كتبا مزورة عليهم انكروها "، انظر البداية ، مرجع سابق، ج٧ ، ص١٩٢.

(٢) انظر ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص٢٦٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق، ج٣ ،ص ص ٥١٧-٥١٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص١٢٥ ؛ ابن العربي ، العواصم ، مرجع سابق ، ص ص ١٤٧-١٥٧.

(٣) يتقدمهم في ذلك : د. طه حسين ، انظر مؤلفه : علي وبنوه ، القاهرة : دار المعارف ، الطبعة السابعة ، ١٩٦٨ ، ص ٩-١٥. وانظر ردا مستفيضا عليه في : د. محمود قاسم ، مجموعة مؤلفين، علي بن أبي طالب ، نظرة عصرية جديدة ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط٢ ، ١٩٨٠ ، ص ص ١١٨ - ١٢٥ ؛ وانظر في دور ابن سبأ وفكره : ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص١٨٣ ؛ الشهرستاني ، الملل والنحل ، القاهرة : مكتبة الحلبي ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، ١٣٩٦هـ -١٩٧٦م ، ج١، ص١٧٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق، ج٣ ، ص ص ٣٧٨ - ٣٧٩ ؛ البغدادي ، الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة محمد علي صبيح ، د.ت ، ص٢٢٥ ، ص ص ٢٣٣-٢٣٥.

- دعاوي الجدال والتشكيك في الدين التي اطلقها بعض الموالي ، اذ تنازعوا في مصير قتلي المسلمين من فريقي علي ومعاوية ، رغم ان الههم واحد ، وكذا رسولهم ، وقبلتهم ، وهم الذين حاجهم الخليفة بنفسه مبينا ان الحساب في ذلك عليه وعلي معاوية [1] .

- وأخيراً دعاوي اليهود في الشماتة من المسلمين والتندر بهم ، كدأب الذى حاج الخليفة الرابع بأن المسلمين لم يكد ينقضي بضع وعشرون سنة علي وفاة النبي صلي الله عليه وسلم حتي كان بعضهم يضرب رقاب بعض بالسيف، فرد عليه الخليفة بأن اليهود كانوا أسرع في مخالفة نبيهم من المسلمين، اذ انهم ما ان جفت اقدامهم من البحر ومروا علي قوم يعكفون علي أصنام لهم حتي قالوا يا موسي اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، يقصد قوله تعالي ﴿وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا علي قوم يعكفون علي اصنام لهم قالوا يا موسي اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون﴾ [2] .

المطلب الثالث : قاصمة انتشار الحروب الداخلية في الدولة :

فقد تتابعت حلقات الفتنة وانتشرت نيرانها لتلحق بأطراف الدولة بعد أن أودت باتفاق الكلمة واجتماع الرأي في عاصمتها ، ومع استمرار جثومها علي صدر الأمة ونشاط دعاوي افساد ارادة التصدي لها بدت امكانات المواجهة أوهي بكثير من امكانات حصرها ، وكأنها ابت إلا أن تمسك بخناق الدولة عاصمة واطرافا ، وحتي هذا الانتشار ظل يتصاعد باضطراد كلما تهيأت له أسباب التمزق والتصدع ليبلغ غايته في استعلاء منطق السيف والحروب ،وسبق لغة الدماء والجروح ، فاذا بكبار الصحابة الذين قاتلوا صفا واحدا أعداء الله في غزوات وسرايا ومواقع متعددة ، يواجه بعضهم بعضا ، واذا بأسماء أمثال علي ، وطلحة ، والزبير ، وعائشة ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، وعمار بن ياسر ، وغيرهم في مقدمة المتقاتلين واذا بأعداد هائلة من خيرة المسلمين واتقاهم من انصار كل فريق متقاتل تسقط صرعي فيما لا طائل من ورائه ، ولو ان القتال الذي انشب بين المسلمين كان قد اقتصر علي جولة واحدة أو وقعة واحدة من وقائع القتال لهان الخطب لكن القتال تكرر أكثر من مرة في الجمل ، وصفين ، والنهروان ، وغيرها من وقعات استنزاف الدم والجهد والطاقات ، بل زاد الخطب تفاقما ان كثيرا من حالات الصدام الدموي - وفق خبر الروايات التاريخية - كانت فى حقيقة امرها - حال وقوعها - مجموعة من الوقعات التي اتخذ القتال فيها شكل الجولات المتلاحقة ، أو المتباعدة حسب الظروف المختلفة لكل واقعة علي حدة ، وما رؤي فيها غالب أو مغلوب ، وانما رؤي فيها جماعة قاتلها ومقتولها بحساب الهزيمة والنصر في المعارك الدموية خاسران.

---

(١) انظر : عبد القادر بدران ، مرجع سابق ، ج١ ، ص٧٤ .

(٢) انظر : ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر ، د.ت ، ج١ ، ص٥١ . والآية في الرواية من سورة الأعراف / رقم ١٣٨.

والذي لا مراء فيه أن القتال في كل جولة كانت له اسبابه ودواعيه ، كما كانت له تفاصيله وسيرته ، ولقد اطنبت المصادر التاريخية وفصلت وهي تعرض لهذا الوهن وتسرد رواياته . وما يعنينا في خبر جولات القتال ، وقد صار ثبوتها التاريخي لا يقبل الشك ، ليس الوقوف عند الوصف الظاهري لها من حيث عدد المتقاتلين من كل فريق، وتعدادهم ، وسير القتال بينهم ، وعدد القتلى من كل جانب ومآل القتال في النهاية [1] وانما الذي يعنينا ما تقوله هذه الجولات بصورة غير مباشرة وما تكشفه عن حال الدولة في خلافة علي بن ابي طالب.

وأول ما يمكن ايراده هنا ان خلافة علي بن ابي طالب قد انهكت في نزيف مستمر من الدماء، وأمواج متلاحقة من التصدعات وكأن ما تنبأ به سلفه قبل أن يقتله المتآمرون حين قال "وا لله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمري كان عليهم مكان كل يوم سنة ، بما يرون من الدماء المسفوكة ، والمحن والاثرة الظاهرة ، والاحكام المغيرة"[2] ، قد وجد واقعا يصدقه ومجتمعا يعايشه. **والثاني** ان كل فريق من المتقاتلين – علي اختلافهم – سواء ممن كان مع الخليفة أو ممن كان ضده خرج متأولا مجتهدا . ولا يمكننا بمقتضى مقام الصحبة النبوية – إلا ان نقف مثل هذا الموقف [3] ، فالبعض تأول بعض الأحكام الشرعية في قتال البغاة ، والبعض تأول ضرورة المطالبة بدم الخليفة المقتول عثمان ، والبعض الثالث تأول الخروج لأن فيه اصلاحا بين المسلمين ، والبعض تأول الخروج لتحكيم الرجال في حكم الله ، والبعض تأول الخروج ابتغاء ولاية ينالها ، وهذا يعني أن كل فريق كان علي بينة من أمره وكانت له حجته في القتال ولعل ذلك أحد مداخل توسيع هوة عدم الاتفاق في النهاية . وبين أولئك وأولئك تأول نفر العزلة ، وآثروا عدم الدخول مع أي فريق من المتقاتلين أو ضده ولكن علي الطرف الآخر تأول آخرون انهم ما خرجوا بين المتقاتلين إلا ابتغاء الفتنة والافساد ، من السبئية واشباههم، وان لم يعلنوا ذلك صراحة. **والثالث** أن هذه الحروب أوهنت موقع السلطة المركزية ، واستنزفت قواها أكثر من مرة، وزادها وهنا اضطرار الخليفة الي التحرك في أكثر من جهة، والقتال ضد أكثر من طرف ،

---

(١) انظر اخبار الوقعات وجولات القتال الدموي : الطبري ، تاريخ الأمم ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ٤٦٥ وما بعدها ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ٤٦٥ ومابعدها ؛ ابن كثير، البداية ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص٢٥٠ ومابعدها؛ د. محمود شاكر ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ص ٢٦٤-٢٨٤ ؛ عبد المتعال الصعيدي ، القضايا الكبري ، مرجع سابق ،ص ص ١٥٩-١٨٤، ص ص ١٥٦-١٦٦.

(٢) انظر : الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص٣٥٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص١٦٢ ؛ احمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، مرجع سابق ، ج١، ص ص١٧٥-١٧٦.

(٣) وهو موقف يقتضيه الورع في النظر الي ما صدر عنهم ، والعدل في تناول سيرهم . انظر : ابن العربي ، العواصم ، مرجع سابق ،ص١٨٠ ، ص ص ١٨٤-١٩١؛ نور عالم خليل الأميني ، الصحابة ومكانتهم في الاسلام ، المملكة السعودية: رابطة الجامعات الاسلامية ، طبعة اولي ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ، مواضع متفرقة . وانظر بصفة خاصة كتاب فضائل الصحابة وما اورده البخاري في صحيحه انظر ابن حجر ، مرجع سابق ، ج٧ ، طبعة الريان ، ص٥ ومابعدها.

وساعد علي ذلك انتقال الخليفة للمشاركة بنفسه في رحي الحروب ، وترك العاصمة لمتابعة المخالفين ، كل ذلك في الوقت الذي كانت تتضخم فيه قوة بعض أطرافه ، خاصة في الشام مما مكنها من مناطحة السلطة المركزية في أكثر من موقع ، لتدين لها السيادة والسلطة في النهاية بعد مقتل الخليفة الرابع . **والرابع** ويكمل ما سبق انه كان طبيعيا وقد تضاءلت مكانه السلطة المركزية ، واستعلت بعض الاطراف لدرجة المناطحة ، أن يسود خلل ما في ادارة الدولة داخليا وقد بدت اهم مظاهره في عدم التفرغ لآداء واجبات الخلافة علي امرها المستقيم ، وانزواء مكانة عاصمة الدولة ، وتأخر سبقها وقيادتها للاطراف ، وخروج بعض الأطراف من قبضة اشرافها ورقابتها ، وتحرك ببعضها الآخر لاعلان سيطرتها واغارتها علي أطراف أخري [1] ، كما فعل معاوية في الشام ، لما فرق جيوشه الي مصر وغيرها من أطراف الدولة [2] .**والخامس** كذلك فقد استمر نزيف الدماء ليعلن ان الجهود التي بذلت لحقنها كافة ومحاولات الاصلاح والصلح كانت دون المطلوب ، أو علي الأقل لم يقدر لها أن تأتي بالمرجو منها ، بل ان ما ارتضته فرق المسلمين المتقاتلة من قبول دعوة الخروج من المحنة بالتحكيم بين الخليفة وانصاره، ومعاوية وتابعيه لم يصل بها إلا الي طريق مسدود ذلك أن نتائجه - بصرف النظر عن حقيقة ما دار بين الحكمين ابي موسي الأشعري وعمرو بن العاص ، وما اتفقا عليه - لم ترض الخليفة ولم ترق لاتباعه ليواجه بعدها فتنة الخوارج مرتين أحداهما لما قاتلهم في واقعة النهروان ، والثانية لما قتلوه غيلة بالتأويل الفاسد [3] .

المطلب الرابع : قاصمة انتكاسة الفاعلية الخارجية للدولة :

فلم تستطيع الأمة ان تحافظ علي احدي خصائص الخلافة التي اتسم بها عهد الخليفة الأول ، في تجنيب الفاعلية الخارجية آثار المشكلات الداخلية ، كما حدث ابان حركة الردة علي سبيل المثال ، وبدلا من الاستمرار في تضميد الجراح التي نزفت بمقتل عمر بن الخطاب ، ومواصلة الكفاحية الخارجية مع الخليفة الثالث الذي اعطي قوة دفع كبيرة لحركة الدعوة ، وما ترتب عليها من فتوحات في السنوات الست الأولي من عهده بالحكم ، ابت الفتنة إلا ان تحدث قطيعة بين المسلمين وبين فاعليتهم الخارجية ، فالاختلاف والدماء استنزفا من تماسك الدولة الكثير داخليا ، وقيادة الدولة شغلتها أولوية مواجهة هذه الاحداث الداخلية ، واستوعبتها بحيث لم تبق لها متسعا

---

(١) انظر التفاصيل في : مصطفي منجود ، الفتنة الكبري ، مرجع سابق ، ص ص ٣٨٢ - ٣٨٤ .

(٢) انظر مزيدا من التفاصيل عن اخبار هذه الاغارات في : ابن الأثير ، الكامل ، مرجع سابق ، ج٣، ص٢٤٤ ومابعدها ؛ ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص٣٤٩ ومابعدها ؛ وانظر في الدلالات السياسية لهذه الاغارات مصطفي منجود ، الفتنة الكبري ، مرجع سابق ، ص ص ٣٨٠-٣٨٢ .

(٣) انظر حول خبر التحكيم ونقل رواياته في : ابن العربي ، العواصم ، مرجع سابق ، ص ص ١٧٢-١٧٩ ؛ د. محمد سليم العوا ، مرجع سابق ، ص ص ٩٥-١٠٤ ؛ وانظر رأى الباحث في هذا الخبر في : الفتنة الكبري ، مرجع سابق ،ص ص ٣٥٥-٣٨٤ .

مناسبا للعمل في الجبهة الأخري الخارجية ، والجهاد الذي هو ذروة سنام الاسلام وحصن الفاعلية الخارجية وحصانتها خفتت وظيفته كسياج قوي للدعوة ، واضحي يلتجأ اليه - خاصة في خلافة علي بن ابي طالب -كلما دعت الحاجة الي صد اية تهديدات خارجية ، أو أية محاولات لنقض ما اتفق عليه المسلمون ، معني ذلك أن هذه الفاعلية اخذت سمة رد الفعل وافتقدت الي حد كبير روح المبادرة ، أو بعبارة أخري صارت مرتبطة بظهور تحديات خارجية للدولة من عدمه وليست مرتبطة بحيوية المبادأة بنشر الدعوة ومواصلة حركة الفتوحات. ويبدو أن حالة التداعي الداخلي اوجدت بيئة خصبة لذلك ، واتاحت لعناصر كثيرة وهنت شوكتها وذلت دولتها في خلافة ابي بكر الصديق وعمر وزمنا من خلافة عثمان ان تطل برأسها من جديد لتناطح قيادة الدولة في أشكال عديدة ، مثل طمع بعض العناصر الخارجية في الدولة والاعتداء علي أطراف تابعة لها ونهب ثروات بعضها وتشجيع حركات الانتفاض علي الدولة ، ومحاولة بعض القوى الاغارة علي الأطراف القريبة من حدودها ، ومحاولة بعضها الآخر استغلال الانقسام بين المسلمين بالتهديد والوعيد والاستمالة [1] .

المطلب الخامس : قاصمة التصفية الجسدية لقيادة الدولة :

فلم يكن الخليفة الثاني هو الوحيد الذي أصابته آثار سياسة التصفية الجسدية ، بل جرأت سابقة التعدي عليه آخرين ، كي يكرروا نفس السياسة مع من تلاه من الخلفاء الراشدين وكأن الأمة من بعد عمر بن الخطاب لم تع الدرس جيدا في :

أ ـ ان وجود من لا سابقة لهم في دين أو خلق منذر بتجرؤهم علي الخلافة ،وانتزاع هيبتها ، والتجرد من هذه الهيبة فى ممارساتهم ، ومفض الى ضرورة الحذر منهم، ومراقبة الحد الفاصل بين ما كانوا يعلنونه من اسلام وما كانوا يبطنونه من ولاء لحضارات وعقائد تربوا فيها ونشأوا ، قبل أن يزيل الاسلام مفاسدها بعض الشيء .

ب ـ وان ثمة اجراءات امنية كان يلزم اتخاذها حيال قيادة الدولة ، حفظا ورعاية ، كما هي لازمة لجمهور الرعية حفظا أيضا ورعاية ، وان مسؤولية المسلمين في الحفاظ علي حياة قيادتهم لا تقل بحال في اهميتها عن مسؤوليتهم في الحفاظ علي انفسهم وكما انه راع مسؤول عمن استرعاه الله منهم ، فهم مسؤولون عن توفير ما يضمن له القيام بعملية الرعاية علي وجهها الكامل، ويبدو ان معاوية بن ابي سفيان استوعب هذا الدرس جيدا ، لما تولي الحكم ، حين أمر

---

(١) تم التفصيل في هذه الاشكال ومصادرها في موضع آخر : انظر: مصطفي منجود ، الفتنة الكبري، مرجع سابق ، ص ص ٣٤١-٣٤٥ .

بالمقصورات ، وحرس الليل ، وقيام الشرط علي رأسه اذا سجد فكان أول من فعلها في تاريخ المسلمين [1] .

جـ - وان سياسة المسالمة وحقن الدماء وتفضيل المثالية بايثار التضحية بالنفس من جانب قيادة الدولة علي الشدة في الضرب علي ايدي العابثين أو الخارجين علي شرعيتها ، خاصة ما فعله الخليفة الثالث ، قد تكون عاقبتها شديدة الخسارة علي الدولة كلها , ذلك ان سياسة المسالمة قد جرت الي اسقاط هيبة الدولة ، واثبتت ان ثمة تقصيرا قد اعتري تنظيم العلاقة بين الخليفة ومتزعمي الشقاق والفتن ، من الرعية المسلمين ومن غيرهم ، كل ذلك حدث بفعل قتل خليفة واحد ، أما وقد تكرر التعدي علي ثلاثة من قيادات الدولة فما ظننا بحجم الخسارة معهم جميعا ؟ .

د - وان التأويل الفاسد من قبل بعض الأفراد أو الجماعات ، داخل الدولة في عاصمتها وفي اطرافها ، يجب ان يقابل بالحسم والتصفية ، سواء ببيان ما ينطوي عليه من مغالطات وتدليس وخطأ أو باعادة اصحابه الي جماعة المسلمين أو بمنعهم من شق عصاها ، ولو بالقوة فالله يزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن ، ومصلحة الجماعة كلها اولي من افساد فريق منها .

هـ - وان الاقدام علي اغتيال قيادة الدولة في غياب نظام للاستخلاف السياسي محدد ومعد سلفا ، في اطاره العام وقيمه الكلية ، انطلاقا مما ارساه الرسول صلي الله عليه وسلم ، وما اجتهد فيه خليفتاه الأول والثاني ، كان أحد الأسباب الرئيسية التي وسعت من دائرة الآثار السلبية التي كانت تتمخض عن كل عملية اغتيال ، خاصة آثارها في البحث عن طريق للاختيار، والبحث عمن تتوفر فيه اهلية الاختيار ، ترشيحا ومبايعة ، وآثارها كذلك في استغلال العناصر الخارجية للفراغ القيادي ، بتأليب بعض الأطراف ، أو تشجيع تمردها علي الدولة ، أو السعي لنقض عهودها معها علي نحو ما ورد آنفا.

المطلب السادس : قاصمة الوهن في أمن الدولة :

ولعل هذه القاصمة تحصيل حاصل لما سبق من قواصم ، بل هي كذلك ، لأن ما تقوله هذه القواصم بصريح العبارة ان الدولة قد اجتمعت عليها روافد داخلية وأخري خارجية اضعفت امنها تهديدا واختراقا ، بيد أنه في الوقت الذي دلت فيه الشواهد التاريخية علي أنها استطاعت فيه أن تقوض آثار التهديدات الخارجية ، وتردع مصادر الاضطراب التي حاولت اضافة المزيد من الخلل وعدم الاستقرار ، حتي في أشد حالات الفتنة استفحالا ، بدت عاجزة عن إعادة ترتيب البيت من الداخل ، وتطهير ارجائها مما اعتمل فيها من قطيعة وهدم قادا في النهاية الي تكرار مبدأ التصفية الجسدية لقيادتها كما سبق وبدا الأمر معها وكأن عقد ترابطها الذي انفرط وتناثرت حباته

---

(١) انظر ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص٢٣٨ ؛ القلقشندي "مآثر الانافة في معالم الخلافة" ، تحقيق عبد الستار احمد فراج، بيروت : عالم الكتب ، طبعة ثانية ،١٩٨٠ ، ج١ ، ص٦١ ؛ ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك ، تحقيق ، د. علي سامي النشار ، العراق : منشورات وزارة الاعلام ، سلسلة كتب التراث رقم ٤٥ ، ١٩٧٧ ، ج١ ، ص٣٧٠ .

أضحي في حاجة ملحة الي سلطان قاهر ، يعيد لها الهيبة والوحدة ، ويضبط نظام سيرها ويشد الفتنة ، ويضرب عناصرها دون هوادة ، وكان معاوية بن ابي سفيان أنسب من يقوم بمهام هذا السلطان بعد الخليفة الرابع ، وقد أكد تطور مسار الخبرة السياسية معه أنه أثبت في ذلك مصداقية كبيرة في بداية عهد بني امية في السلطة السياسية .

ملاحظات عامة علي تطورات حركة الدولة الخارجية في الخبرة السياسية :

يمكن القول إن نظرة ختامية الي ما رصد آنفا من تطورات لحركة الدولة الاسلامية الخارجية في الخبرة السياسية التي انقضت بانتهاء الخلافة الراشدة تجعلنا نستخلص بعض الملاحظات التالية:

الأولي : ان تجربة الدولة الاسلامية في عصر النبوة قد فتحت آفاقا كبيرة لتعامل هذه الدولة الخارجي ، وأرست لذلك قواعد قيمية تستند الي الوحي ، وأخري حركية تستند الي الواقع ، وخبرة القيادة السياسية في تسيير دفة ذلك التعامل ، بيد ان طبيعة وضع الدولة -خاصة الخارجي- لم يكن ليحتمل أو ليتجاوب مع كل هذه القواعد و لم يكن ليقبل التطور الطفري اذا ما اخذ في الاعتبار حال عناصرها - خاصة البشرية - وتكوينها الحضاري قبل تجميعها علي عقيدة التوحيد، والجهد الكبير الذي بذله النبي صلي الله عليه وسلم في ذلك ، وهذا يعني أن قواعد التعامل الخارجي في عصر النبوة كانت تنتظر تطورا أكبر لوضع الدولة ومكانتها ، وهو ما استفاد منه الخليفتان الأول والثاني وقد حال انتكاس المسلمين بعدها دون اكمال هذه الاستفادة مع الخليفتين الثالث والرابع .

والثانية : أن فترة فيضان الدولة الاسلامية في عصري النبوة والخلافة الراشدة ، اقترنت "بلحظة تدهور عام في جميع المناطق المحيطة بشبه الجزيرة العربية ، فالدولة الفارسية من جانب ، والامبراطورية البيزنطية من جانب آخر كانتا تعيشان مرحلة تحلل داخلي ، وصراعات عنيفة ، كان لابد ان تسهل علي المجتمع الناشيء العربي غزوه للشعوب المحكومة في تلك المناطق "[1] غير أن هذا لا ينبغي ان يقودنا الي التهوين من قوة هذين الخصمين أو التهوين من شأن الضربات التي تلقياها علي أيدي الفاتحين المسلمين ، ذلك أن العقيدة القتالية الايمانية للجيوش المسلمة ، وبراعة القيادات التي كانت عليها ومهاراتها ، والاعداد الفعال للقتال ، وحسن التخطيط للمعارك ، والتحرك لها ، وفعالية العلاقة بين الفاتحين وقيادات الدولة المتعاقبة ، فضلا علي الخبرة في التعامل مع الدول المحيطة ، وبصفة خاصة بالنسبة للقبائل التي كانت علي حدود فارس من جانب ، ودولة الروم من جانب آخر ، ومكنت الجيوش المسلمة من تملك القسط الأدني من المعلومات التي تسمح لها بالفتح عن علم ومعرفة بالعدو وقدراته [2] ، كل ذلك من العوامل - الي جانب وهن القوتين العظميين آنذاك - زكي انتشار حدود الدولة واتساع فيضانها .

---

(١) انظر : د حامد ربيع ، الاسلام والقوي الدولية ، مرجع سابق ، ص٩٦ .

(٢) انظر المرجع السابق ، ص٩٧ .

والثالثة : بقدر ما كانت معظم المشكلات التي تمخضت عن تطور الدولة الاسلامية في خلافة ابي بكر وعمر بفعل امتداد حركة الفتح الاسلامي - انطلاقا مما مهد له الرسول صلي الله عليه وسلم قبل وفاته -لاتعدو ان تكون مشكلات متعلقة بكيفية المواءمة بين منهج انتشار حدود الدعوة في الدولة وأطرافها ، ومنهج ادارتها [1] . والقيام بهذه المواءمة باستمرار نظرا لعدم توقف حركة الفتح في عهديهما ، فان معظم مشكلات الدولة - داخليا وخارجيا- في خلافة من تلاهما كانت تتعلق بكيفية المواءمة بين منهج الادارة الذي أرسي في خلافة ابي بكر وعمر وبين الآثار السياسية التي ترتبت علي هذا النهج ، وتلك التي تمخضت بعيدا عنه ، أو استجدت عليه ، بعبارة أخري كانت غالبية مشكلات الدولة مع الخليفتين الأول والثاني يغلب عليها الطابع الاداري حين غلب علي مشكلاتها مع الثالث والرابع الطابعين الاداري، والسياسي ، وآفة الدولة في عصر عثمان وعلي ان تداعي الآثار السياسية السلبية كان أسرع من محاولة استيعابها اداريا وسياسيا علي نحو مناسب .

والرابعة : لم نشهد في اي تطور من تطورات الدولة الاربعة السابقة ما يمكن ان نسميه بعنف الدولة ، أو ارهابها بالباطل قبل الأطراف التي شاركت في المحن الداخلية سواء فرادي أو جماعات، ولم نسمع أو نقرأ عن اجراءات استثنائية غير شرعية لحفظ امنها وامن السلطة السياسية فيها ، وقد مر بنا كيف ان الرسول صلي الله عليه وسلم سلك مسلكا عادلا مع اليهود والمنافقين رغم ما احدثوه من فساد في ارجاء الدولة ، بل انه ابتدأ مع الفرقة الأولي بدستور المدينة فلما اعتدت قاتلهم حين أبي أن يقاتل الفئة الثانية أو يقتل رؤوسها رغم علمه بنفاقهم وخبر السماء له بذلك وما داهن الخليفة الثاني في أمر المرتدين ، أو أسر شيئا ، وأظهر آخر في الموقف العادل منهم ، بل اقام الحجة عليهم ، فمن عاد سالمه وآمنه ، ومن ابي قاتله وانهي ردته ، وأما عثمان وعلي فرغم محاولات اعتداءات المعارضين عليهما وتجاوزاتهم المتكررة في عاصمة الدولة وفي اطرافها بل وتعدياتهم علي شخصيهما في النهاية ، إلا انهما لم يبادلاهم العنف والعدوان بغيا وظلما ، وكذلك كان تصرف الخليفة الثالث مع الذين حاصروه ثم اغتالوه ، وعلي نفس المنوال تصرف الخليفة الرابع مع أصحاب الجمل وأهل صفين ناهيك عن الخوارج .

والخامسة : لم يشهد أي من التطورات الأربعة تهديدا خارجيا حقيقيا لأمن الدولة الاسلامية حتي في أشد لحظات المحن والبلاء واقواها ، بعد خلافة عمر بن الخطاب ، وربما كان لذلك أسبابه ويأتي في مقدمتها صدق وعد الله النبي صلي الله عليه وسلم ان لا يجتمع علي امته تهديد داخلي وآخر خارجي معا يستأصلان شأفتها ووجودها لما ورد في الحديث " لن يجمع الله علي هذه الأمة سيفين سيفا منها وسيفا من عدوها " [2] . قال بعض علماء السلف "فمن خصائص هذه الأمة

---

(١) انظر : د محمد سليم العوا ، مرجع سابق ، ص ص ٨٣-٨٤ .

(٢) رواه أبو داود . انظر : محمد شمس الحق العظيم آبادي ، عون المعبود شرح سنن ابي داوود مع شرح بن قيم الجوزية ، تحقيق محمد عثمان ، المدينة المنورة : المكتبة السلفية ، طبعة ثانية ، ١٣٣٨هـ ج١١، ص ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

ورحمة الله تعالي بها ان لا يجتمع قتال كفار ومسلمين في وقت واحد فاما كفار واما مسلمين ، ولو كانوا في وقت فيه قتال مسلمين ووقع قتال كفار يرجع المسلمون عن القتال ويجتمعون علي قتال الكفار لتكون كلمة الله هي العليا [1] ، كذلك من أسباب عدم وجود تهديد حقيقي خارجي ضعف القوتين العظميين الروم والفرس آنذاك ، واعتبار الأطراف المسلمة التي عركتها هذه المحن ان ما كان بينها من نزاع وشجار كان شأنا داخليا سرعان ما ينتهي اذا هددت الدولة من خارجها ، كدأب معاوية أيام موقعة صفين اذ رأى قنسطانس الثاني ملك الروم اشتغاله بحرب الخليفة فتداني الي بلاد الشام في جنود عظيمة طامعا في السيطرة عليها والثأر في نفس الوقت من معاوية فلم علم الأخير بنواياه ارسل اليه بلغة حاسمة وقاطعة "والله لئن لم تنته ولم ترجع الي بلادك يالعين لاصطلحن وابن عمى عليك ولاخرجنك من جميع بلادك ولاضيقن عليك الأرض بما رحبت " [2] .

والسادسة : كذلك لم يثبت أن أيا من الأطراف المسلمة التي دارت رحي القتال بينها في اواخر عصر الخلافة الراشدة قد تحالف مع طرف خارجي غير مسلم ضد طرف مسلم آخر بل ان معاوية آثر ان يدفع مقابلا ماديا للروم صالحهم عليه ولو اراد التحالف معهم ضد علي بن ابي طالب ، لما لوحوا له بذلك ، تذكر الروايات انه لما هددهم وتوعدهم ارتدعت الروم وصالحته علي ان يؤدي اليهم مالا قيل انه مائة الف دينار ، واخذ منهم معاوية رهنا ، فجعلهم ببعلبك ثم ان الروم غدرت وقتلت رهن المسلمين فابي معاوية والمسلمون أن يستحلوا قتل من تحت ايديهم من رهن الروم وخلوا سبيلهم وقالوا "وفاء بغدر خير من غدر بغدر " [3] .

والسابعة : كما أن أيا من التطورات الأربعة السالفة لم نر فيه محاولات لأطراف خارجية غير مسلمة للوساطة بين الأطراف المسلمة خاصة التي دارت رحي الحرب بينها ايام خلافة علي بن ابي طالب ربما لأن المسلمين لم يتيحوا لأي مغرض ان يندس بينهم ، وربما لأن احدا من الأطراف الخارجية لم يهم بفعل هذه الوساطة ، وربما لأن هذه الأطراف بعد ما لاقته من ضربات موجعة علي ايدي الفاتحين المسلمين قد اهمها تداعي الوهن والقطيعة بين المسلمين أكثر من محاولة الاصلاح بينهم حنقا وشماتة ، وربما لغير ذلك من الاسباب ، لذلك ظلت الوساطات التي جرت

---

(١) انظر : نفس المرجع السابق .

(٢) انظر ابن كثير ، البداية ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص١١٩ ؛ ابن العربي ، العواصم ، مرجع سابق، ص٢٠٤ . وانظر رواية اخري في : د. محمد حميد الله ، مرجع سابق ، ص٣٩٥ ؛ احمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، مرجع سابق، ج١ ، ص٤١٦ .

(٣) انظر : د. محمد حميد الله ، مرجع سابق ، ص٣٩٥ ؛ الماوردي ،الاحكام السلطانية ، مرجع سابق ، ص٥١؛ عبد العزيز صقر ، نظرية الجهاد، مرجع سابق ، ص٣٩٦ . وانظر أيضا

Peters , op. cit. , p. 35 .

يقودها بعض المسلمين فرادي وجماعات ، في نطاق داخلي خالص ، كمحاولات الصلح والوساطة التي قام بها علي بن ابي طالب بين الخليفة الثالث والثائرين عليه قبل قتله ، ومحاولات نفر من الصحابة الصلح بين الخليفة الرابع واصحاب الجمل ، وبينه وبين معاوية، وبينه وبين الخوارج ، والأمر الملفت للنظر ان معظم هذه الوساطات قد افسدت ، وأريد لها ان لا تثمر شيئا ذا أهمية من قبل عناصر مفسدة بين المسلمين ، فكانت العاقبة سيئة علي جماعة المسلمين وقيادتهم كما رأينا.

والثامنة : لم تتح الانقسامات التي حدثت فرصة أو ذريعة لأي طرف خارجي كي يتدخل -بأي شكل كان- لنصرة طرف ضد آخر ، لروابط خاصة معه عرقية ، أو دينية ، أو طائفية من حيث أنها - أي الانقسامات - كانت في معظمها ذات طابع اجتهادي في كثير من مسائلها حتى السياسية منها و لم تكن ذات طابع عرقي ، أو طائفي وهذا يقوي ما ينتصر له الباحث من اعتبار مدخل الابتلاء بكل سننه ونواميسه، وليس مدخل التآمر هو الأنسب لتفسير هذه الانقسامات ذلك أن مدخل التآمر - داخليا وخارجيا - وأيا كانت له شواهده مع المنافقين واليهود والسبئية وغيرهم في تلك الحقبة التاريخية إلا أنه لا ينهض وحده في هذا المقام ، والأجدي النظر الي الابتلاء الذي أصاب الذات المسلمة من داخلها ﴿أو لما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها من قبل قلتم اني هذا قل هو من عند انفسكم﴾[1] ، ﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2] . ومن بعدها قد يصلح المنطق التآمري علي ان تكون له شواهده الواقعية، وان يحلل في سياقها وحجمها وآثارها دون تهوين أو تهويل[3] .

---

(١) سورة آل عمران / الآية رقم ١٦٥.

(٢) سورة الرعد / الآية رقم ١١.

(٣) انظر من المصادر الأجنبية التي تعرضت الأحداث الابتلائية في خلافة علي ابن ابي طالب.

- Ali Dashti , op. cit ., pp. 171 - 181 ; Kenedy , op. cit . , pp. 68 -81; Edward Attiayh , op. cit ., pp 36 - 38 ; Khudo Bukhsh , op.cit.,pp 36 - 45 ; Mohammed Hamidullah , op.cit., pp. 168-187; S.W.Muir , The Caliphe , Its Rise , Decline and Fall,Beirut: Kharat,1962 , pp. 206 - 304 .